

# الإعجاز القرآني

تأليف

محمد عادل القلقياي

دار الحديث

بيروت

٢٧ ١١ ١٩٥٤

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل  
الطبعة الأولى  
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله الكريم الأمين وسلّم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنني أدرس في هذا الكتاب ستاً من السور التي تتصدّرها الحروف المقطعة (الم) - ألف لام ميم - وهي (سور البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة) .

وكان محور دراستي في كتيبي السابقة هو اكتشاف الموضوع الواحد الذي تدور حوله كل سورة من السور القرآنية التي عاجلتها ، على الرغم مما يبدو من خلاف في معاني السورة وموضوعاتها الفرعية ، لمن يقرؤها لأول وهلة ، دون تدبر أو إمعان .

وفي هذا الكتاب أيضاً أتناول - إن شاء الله - الكشف عن الموضوع الواحد الذي تدور حوله (زمره) سور (الم) بكاملها ، فقد اعتبرتها

وحدة كاملة متكاملة وذلك بإيجاء من افتتاحها جميعاً بنفس الحروف (الم) .

ولابد من الإشارة إلى أنه قد وردت أحاديث نبوية صحيحة تؤكد فضل سورتي البقرة وآل عمران - أكبر سُورِ (الم) - منها قوله ﷺ : « اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما . اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة » (مشكاة المصابيح - رقم ٢١٢٠) .

كما ورد حديث شريف يُفيد أن أعظم آية في كتاب الله هي آية الكرسي ﴿ اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ (مشكاة المصابيح : ٢١٢٢) ، التي يوجد مطلعها هذا أيضاً في أول سورة آل عمران . أي أن سورتي البقرة وآل عمران تشتركان في ثلاثة أمور هي :

(١) افتتاحهما بالحروف (الم)

(٢) وجود العبارة (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) في كل منهما .

(٣) فضلها وبركتها الخاصة على من يقرؤها .

ومن دراستي لمعاني السور الست (زمرة الم) ، وبإيجاء من رأي وجيه أورده ابن كثير في تفسير للحروف (الم) ، اكتشفت أن الموضوع العام الذي تدور حوله هذه الزمرة الكريمة من السور هو (التلاؤم) ، أي

التوافق والتوازن .

وأعني بذلك ما يلي :

١ - التلاؤم حقيقة ثابتة في الكون ، بين أجرامه السماوية ، بين الأرض والشمس ، والقمر ، بين الأحياء جميعاً ، بين أعضاء جسم الإنسان وأجهزته الحيوية .

وبدراسة هذا التلاؤم الكوني واكتشافه نعرف الله تعالى وصفاته الحسنى معرفة يقينية ، وهي الطريقة المثلى للإيمان بالله لأنها تقوم على العلم والتجارب الحسية ، وقد انفرد القرآن الكريم وتميز عن سائر الكتب بتوجيه النظر إليها بتكرار عجيب ، وخاصة في سور (الم) .

٢ - التلاؤم بين أجزاء الشريعة الإسلامية ، وبينها وبين حاجات النفس البشرية ، كمثل التلاؤم والتوازن الذي تحدته كل من الصلاة والصوم والزكاة والحج في نفوس الأفراد والمجتمعات . وهذا التلاؤم يثبت لمن يدرسه أن هذه الشريعة وهذا القرآن حق لا ريب فيه ، وأن الرسول الذي بلغها صادق أمين مرسل من عند الله .

٣ - التلاؤم هو الهدف الأساس الذي يجب على كل إنسان أن يسعى لإيصال نفسه إليه مُحدثاً التوازن والتوافق والانسجام في داخل نفسه ، بين ما تطلبه الحياة المادية وما تطلبه الحياة الروحية ، بحيث لا تغطي إحداها على الأخرى .

فعلى الإنسان مثلاً ألا يستسلم للخوف الشديد من عقاب الله حين يقع في الخطيئة ، فيصيبه اليأس ، فيدمر نفسه ، ولا أن يستسلم للأمل الكاذب في سعة عفو الله ، فيرتكب المعاصي دون رادع ، فيهلك نفسه ، بل عليه أن يحتفظ بالتوازن بين الخوف والأمل ، بحيث يقودانه إلى السير على صراط مستقيم .

وقد استرشدت من أجل الوصول إلى معرفة هذا الموضوع الواحد للزمرة المؤلفة من السور الست ، بنفس الحروف ( الم ) - ألف لام ميم - التي تتصدرها ، وذلك بأسلوب جديد ، أفصله فيما بعد إن شاء الله . وختاماً أرجو الله أن يجعل في كتابي هذا فائدة للناس ، وأن يكون مساهمةً في خدمة كتاب الله المجيد ، ووسيلة إلى نيل رضاه ومغفرته . والحمد لله رب العالمين .

## الباب الأول

الفصل الأول - التركيب والتحليل والتلاؤم

الفصل الثاني - حروف (الم) والتلاؤم

الفصل الثالث - التركيب التصنيفي الاصطفائي





# الفصل الأول

## التركيب والتحليل والتلاؤم

يقول ابن كثير نقلاً عن جمع من المفسرين المحققين (ومنهم المبرد والفرّاء والزمخشري وابن تيمية والمزي): «إنما ذُكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذُكرت فيها، بيانا للإعجاز القرآني، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه (مركب) من هذه الحروف (المقطّعة) التي يتخاطبون بها».

ويؤيد قولهم هذا الآية التالية التي وردت في أوائل سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وادعوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . ففي هذه الآية يتحدّى الله العربَ جميعاً أن يؤلفوا سورة واحدة تماثل إحدى سور القرآن في نظمها وفصاحتها وبلاغتها ومعانيها ، مشيراً إلى أن القرآن مركّب من نفس حروف اللغة العربية الثمانية والعشرين التي يعرفونها ويتكلمون بها في حياتهم اليومية ، والتي منها (يُرَكَّبُ) شعراؤهم قصائدهم ، ويؤلف خطباؤهم خطبهم والتي ذكر منها في سورة البقرة وزمرتها الحروف الثلاثة (أ، ل، م) رمزاً لهذا التحدي .

لقد أوحى إليّ هذا القول بخطورة عملية (التركيب والتحليل)، التي أثارها في ذهني كلمتان استعملهما ابن كثير، وهما «مركب» و «مقطعة». فكلمة مركب تستدعي فكرة. قوله: (التركيب)، وكلمة مقطعة تستدعي فكرة (التحليل) المعاكسة لكلمة التركيب .

فما هو مدى خطورة عملية التركيب والتحليل وأهميتها؟ وهل تضمنت سور (الم) ذكراً لهذه العملية، وكيف تم ذلك؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لتتدبر معنى التركيب. إن الشيء المركب ليس مجرد (تجمع عشوائي) لعناصر مختلفة، وإنما هو تجميع هذه العناصر بحسب خطة موضوعة تنسجم بها العناصر وتتألف (وتتلاءم) فيما بينها، لكي يؤدي كل منها وظيفة معينة، وتحقق بمجموعها هدفاً معيناً. أي أن (التلاؤم) هو أساس تركيب.

إنك حين تريد تركيب جملة كلامية لتأدية معنى معين، فإنك تنتقي كلمات معينة، وتعرضها على سامعك بترتيب معين. فإنك تقول له مثلاً (الكتاب في الخزانة)، ولا تقول له (الخزانة الكتاب في)، على الرغم من استعمالك لنفس كلمات العبارة الأولى.

بل إن لكل كلمة من الكلمات تركيباً خاصاً يحقق لها معنى خاصاً. فكلمة (الجرول) لا تقوم مقام كلمة (الرجل) على الرغم من أن حروفهما واحدة.

وإذا أردت أن تتركب جهاز راديو من قطعهِ الأساسية ، كالمقاومات الكهربائية والمكثفات والترنستورات والمحولات ، فإنك لا بد أن تتبع خطة معينة في توصيل بعضها ببعض ، حتى تحقق لك هدفك ، وحينئذ يمكن تسمية جهازك الذي صنعته ( مركباً ) أو ( تركيبياً ) ، لأنه يقوم على ( التلاؤم ) والتناسق بين أجزائه .

ويؤكد هذا المعنى أن الله تحدى المشركين المكذبين أن يركبوا سورة تشبه إحدى سور القرآن . فهو لا يطالبهم بمجرد تجميع عشوائي لكلمات من اللغة العربية ، بل يطالبهم بكلام ذي نسق معين كنسق الكلام القرآني في نظمه ومعانيه وفصاحته وبلاغته ، وبتألفٍ وتلاؤم خاص بين أجزائه بحيث يثير الإعجاب الشديد الذي يثيره القرآن في نفس سامعه ونفهم من هذا أيضاً أن ( السورة ) لا بد من أن تكون مبنية على تلاؤم أجزائها ، وهذا يعني أنها لا بد من أن يكون لها موضوع واحد تقوم عليه .

ومما قد يفيد ذلك أيضاً اشتقاق كلمة ( السورة ) من ( السور ) ، وهو الجدار العالي الذي يحيط بالبيت أو البستان ، ليمنع دخول الغرباء عنه . فكانت تسميتها بالسورة تشير إلى أن عناصر السورة الداخلية متجانسة متلائمة فيما بينها ، ولا تسمح بدخول الأفكار الغريبة إليها ، بل تحجزها عنها بسورها كيلا تُفسد انسجامها .

وهذا مما يدعو كل باحث إسلامي إلى البحث عن الموضوع الواحد الذي تدور حوله كل سورة قرآنية .

والآن لنر مدى خطورة عملية ( التركيب والتحليل ) .

### خطورة عملية التركيب والتحليل :

إن عملية ( التركيب والتحليل ) عملية بالغة الخطورة ، فيها نعرف الله تعالى حق المعرفة ، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه بنفس لفظ ( التركيب ) حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ؟ ﴾ . ( الانفطار : ٦ - ٨ ) فقد ركب الله الإنسان تركيباً متناسقاً متلائماً سوياً معتدلاً .

كما ذكر الله التركيب في الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاقِبًا ) ( الأنعام : ٩٩ ) . فقد لفتت الآية النظر إلى ( تراكب ) الحب ( كحب السَّنابل ) بعضه فوق بعض ، بشكل متناسق متلائم بحيث يتبع خطة معينة تحقق الجمال .

وعملية ( التركيب والتحليل ) عملية تسود حياتنا جميعها ، ولا يكاد يخلو منها أي نشاط إنساني . وإليك الأمثلة التالية :

أ- إن عملية التفكير - وهي أرقى نشاط إنساني يميّزه عن سائر

الحيوانات - إنما هي عملية تركيب وتحليل

ولأضرب مثلاً على ذلك بضابط الشرطة ، الذي - عندما يبلغه نبأ وقوع جريمة قتل - يأخذ في جمع عناصر مختلفة من ملابس القضية ، كبصمات الأصابع ، وأعداء القتيل وأقربائه وأصدقائه والمستفيدين من قتله ، وزمان وقوع الجريمة ومكانها ... الخ .

إنها معلومات مفككة أو (محللة) . لكنه يعمل على (تركيب) هذه المعلومات وفق أسس منطقية وعلمية ، متبعاً خطة معينة ، بحيث تتلاءم هذه المعلومات وتتوافق لتحقيق هدفاً معيناً هو معرفة مرتكب الجريمة .

ومثال آخر على استعمال التحليل في العمليات الفكرية ، محاولة الكشف عن القوى المؤثرة في جسم المتحرك ، كالأرض مثلاً ، فإنها تتحرك حول الشمس دون أن تصل إليها ودون أن تبعد عنها .

إننا نجد بتحليل القوى المؤثرة في الأرض أنها مركبة من قوتين رئيسيتين ، هما ( قوة الجاذبية ) التي تحاول دفع الأرض نحو الشمس على خط مستقيم ، ( والقوة الطاردة ) أو النابذة التي تحاول دفع الأرض بعيداً عن الشمس . وتكون محصلة هاتين القوتين أن تسير الأرض في حركة دائرية حول الشمس .

وقد نستعمل أحياناً بدلاً من لفظ ( التركيب ) ألفاظاً أخرى لها نفس المعنى مثل ( الجمع ، الربط ، الخلق ، البناء ، الإنشاء ) وغيرها . كما

قد نستعمل بدلاً من ( التحليل ) كلمات أخرى أمثال التفريق ، الفك ، التقسيم ، التجزئة ) وغيرها .

ب - ومن أمثلة ( التركيب والتحليل ) في حياتنا اليومية ، عملية خياطة الملابس . فالخياط ، حين يريد أن يصنع ثوباً ، يقصّ القماش قطعاً متعددة ، كقطعة للصدر وأخرى للظهر وثالثة للكُمين ، وهكذا ، وما القص إلا تفريق للقماش أو ( تحليل ) .

ثم يجمع الخياط هذه القطع المتفرقة ويربطها بعضها ببعض على نسق معين وتلاؤمٍ وانسجام ، أي ( يركبها ) .

ج - وقل مثل ذلك في أعمال الطبخ ، والأعمال التي تقوم بها المصانع المختلفة لتركيب مصنوعات من سيارات ومراوح وغيرها .

### التركيب والتحليل طريق معرفة الله :

نخلص من ذلك إلى أن الموضوع الأساسي الذي انبنت عليه سور (الم) هو معرفة الله تعالى ، عن طريق التركيب والتحليل ، أي عن طريق التفكير في كتاب الله المقروء ، وهو القرآن الكريم ، وفي كتاب الله المشهود ، وهو هذا الكون ، بأرضه وسمائه ، وجماداته وأحيائه ، وأنفس سكانه من البشر وغيرهم ، وكشف ( التلاؤم ) والتوافق والانسجام الذي يسود جميع أجزاء الكتابين ، والذي يدل دلالة قاطعة على الله الذي ( لاءم ) بين أجزائهما التي لم تكن لتتلاءم بنفسها قط ، ولكن الله أَلَّفَ

بينها .

ثم بعد معرفة الإنسان لربه ، فإنه يجب عليه أن يتلاءم معه تعالى ،  
فيطيعه بالتقيد بصراطه المستقيم ، فالله تعالى أعلم بما يلائم الإنسان من  
أعمال وأحوال .







## الفصل الثاني

حروف (الم) والتلاؤم

بعد ذلك خطر ببالي السؤال التالي : هل هناك علاقة بين لفظ ( التلاؤم ) والحروف الثلاثة ( الم ) - ألف لام ميم - المفتحة بها زمرة السُّور الست ؟

لقد وجدت أن الأصل الثلاثي لكلمة التلاؤم هو (لأم)، أي هو نفس الأحرف الثلاثة ( ألف لام ميم ) ، غير أنها مركبة بالترتيب ( لام ألف ميم ) (\*) .

ثم خطر ببالي سؤال آخر : ماذا يحدث إذا طبقنا عملية التركيب على نفس هذه الأحرف الثلاثة : الألف واللام والميم ، مكونين منها تراكيب متعددة ؟

لقد وجدت أنه يمكن أن نركب من هذه الحروف البدائل التالية

---

(\*) - إن حرف الألف يمكن قراءته في اللغة العربية إما بلفظ الهمزة كما في ( سأل ) أو بلفظ المدّ كما في ( قال ) .

(١) - أَلْمُ - بمعنى ما يؤلم الإنسان ويوجعه

(٢) - أَمَلٌ - بمعنى الرجاء المنبعث في النفس أو توقع حدوث أمر سارّ

أو سعيد .

(٣) - مال - ويمكن قراءتها بطريقتين :

الأولى : (مَالٌ) ، التي تجمع على (أموال) ، وهي الأشياء ذات

القيمة التي يمتلكها الإنسان .

والثانية : (مال) : وهي فعل ماضٍ بمعنى (انحرف) .

(٤) - لام - ويمكن أن تُقرأ بطريقتين :

الأولى : (لَامٌ) : وهي فعل ماضٍ بمعنى (وَبَّخَ) أو (انتقد)

والثانية : (لَأَمْ) : وهي فعل ماضٍ بمعنى (وفق وأصلح

(٥) - ملا - ويمكن أن تُقرأ بطريقتين :

الأولى : (مَلَأٌ) ، وهي اسم بمعنى (الجماعة)

والثانية : (مَلَأٌ) : وهي فعل ماضٍ من الملاء أي تعبئة شيء

فارغ .

(٦) - لَمَأٌ - وهي فعل ماضٍ بمعنى (فرَّغ)

ولدى تأمل هذه البدائل وجدت أن التركيب (لَأَمْ) الذي يفيد (التلاؤم) ،

هو الذي يسيطر على معاني البدائل جميعها و(يلائم) فيما بينها .

فالبدائل الأخرى تجتمع مثنى مثنى لتشكّل أزواجاً متضادة؛ ينبغي

الجمع بينها .

بحيث (تتلاءم) لتسلك معاً طريقاً وسطاً يؤدي بالإنسان إلى

السعادة . وإليك البيان :

( أ ) - إن أول هذه الأزواج المتضادة هو ( الأمل والأمل ) . فالألم يثير الضيق والحرج في النفس ، سواء أكان ألماً حسيّاً أم نفسياً . وأما الأمل ، فعلى العكس من ذلك ، يثير في النفس الارتياح والاستبشار والطمأنينة والاستقرار .

وينبغي على الإنسان ألا يستسلم للألام بحيث يقع في اليأس ولا أن يستسلم للأمل المفرط الذي يجعله يستهين بالمعاصي ، بل عليه أن يسلك سبيلاً وسطاً يلائم فيه بين الأمل والأمل ويوفّق بينهما . وهذا ما تقرره إحدى سور (الم) إذ تقول ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ (البقرة: ١٤٣).

( ب ) - وثاني هذه الأزواج المتضادة هو ( مآل ولام ) . فإن الأولى تفيد الميل أي الانحراف عن جادة الصواب . وأما ( لام ) فتفيد ( اللوم ) أي توبيخ المنحرف ونقده لردعه عن الانحراف وإعادةه إلى الصواب والتلاؤم مع صراط الله المستقيم .

( ح ) - وثالث هذه الأزواج المتضادة هو ( مآل و لمآ ) ، فالكلمة الأولى تعني تعبئة ما كان فارغاً . وكلمة ( لمآ ) تعني تفريغ ما هو مملوء . يُقال « لمآت الريح الحقل » أي أزالته عنه الزرع .

وينبغي على الإنسان أن يحافظ على التوازن والتلاؤم . بين الملاء والتفريغ في نواحي حياته المختلفة .

( د ) - والزوج الرابع هو ( المال والملاء ) . ومن المعلوم أن توزيع المال

بين طبقات المجتمع (الملاء) هو المشكلة الكبرى التي تسبب التناقض بين هذه الطبقات ، والتي لا تحلّ إلا بإحداث توافق و (تلاؤم) بين هذه الطبقات ، وذلك بإيجاد تلاؤم وتناسب في توزيع المال بينها .

وهو ما عالجه سور (الم) معالجة تفصيلية ، وخاصة سورة البقرة ، التي تحدثت في أواخرها طويلاً عن الصدقات المعطاة للفقراء والشروط الواجبة لإعطائهم إياها (كترك المن والأذى) ، كما تحدثت طويلاً عن البيع والربا وتسجيل الديون عند كاتب العدل ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله في فصول قادمة .

وهكذا نجد أن الموضوع الأساسي لسور (الم) هو (التلاؤم) المشتق من حروف (الم) إذا رتب بالترتيب (لأم) .

ولزيادة إيضاح معنى (لأم) ، أذكر أنه ورد في المعاجم اللغوية كما يلي :

(لأم بين الشيئين ، أي جمع بينهما ووافق ، ولأم الجرح أو الصدع ، أي سدّه وجمعه) وقد اشتق منه لفظ (التأم) ، فيقال (التأم الكلام) أي اتسق وانتظم . ويقال (التأم القوم) أي اجتمعوا واتفقوا . ويقال (لاءمه الأمر) أي وافقه . ويقال (لاءم الفريقين) ، أي جمع بينهما وأصلح .

ولا بدّ من الإشارة إلى أن التلاؤم بين شيئين ، إما أن يتم بسبب صفتين متضادتين فيهما . وذلك كمثل زوجين ، أحدهما عصبي المزاج

سريع الغضب ، والآخر هادئ المزاج بارد الأعصاب . فإن الأخير يقابل عصبية الأول ببرودة أعصابه ، ولا يردّ عليه بمثل كلماته اللاهبة فيمتص غضبه ، ويعود إليهما الصفاء و ( التلاؤم ) .

ولما أن يتم التلاؤم بين شيئين بسبب اتفاقهما في صفة واحدة . فإذا كان كل من الزوجين منتبهاً إلى طبقة فقيرة واحدة مثلاً ، فإن أحدهما لا يستطيع أن يتكبر على الآخر محتجاً بعلو طبقته على طبقة الآخر ، فيحدث بينهما ( التلاؤم ) أيضاً .

فالتلاؤم إذن يهدف دائماً إلى الإصلاح والوفاق والتوازن والوصول إلى الخير والحق والعدل والجمال باتباع خطة معينة أو منهج خاص .

ولا بدّ أن أوكد أخيراً أنني لا أزعم في بحثي هذا أنني قد اكتشفت تفسير الآية ( الم ) ذات الحروف المقطعة ، فلا يعلم تفسيرها إلا الله تعالى ، غير أنني استرشدت بها للاهتمام إلى الموضوع الواحد الذي تدور حوله السور الست .

وسأعرض فيما يلي - إن شاء الله - كيف عاجلت سور ( الم ) أنواع التلاؤم الثلاثة المذكورة سابقاً ، وهي : التلاؤم الكوني ، وتلاؤم التشريع الإسلامي ، والتلاؤم الإنساني النفسي والاجتماعي ، وذلك بعد أن أعرض نوعاً مهماً من أنواع التراكيب ، ورد كثيراً في سور ( الم ) ، وهو ( التركيب التلاؤمي الاصطفائي ) .



## الفصل الثالث

### التركيب التصنيفي الاصطفائي

إن هذا النوع من التراكيب التلاؤمية يملأ جميع نواحي حياتنا ، كما أنه يتكرر في سور ( الم ) وله أهمية عظمى في الدنيا والآخرة . والأمثلة عليه كثيرة . فمن ذلك :

أ - عندما يجلب بائع الفواكه صندوقاً من التفاح إلى دكانه ، فإنه ( يصنّف ) التفاحات إلى قسمين ، فيضع أجود التفاحات معاً في وعاء خاص بها ، ويضع التفاحات متوسطة الجودة في وعاء آخر .

إنها عملية تحليلية تركيبية . فهو يحلل عناصر صندوق التفاح ، ويعيد تركيبها ( تجميعها ) بحسب درجة جودتها وتشابه صفاتها . ويأتي المشتري بعد ذلك فيصطفي ( ينتقي ) الصنف الذي ( يلائمه ) .

ب - إن لدى مؤلف المعجم اللغوي ( القاموس ) كلمات اللغة العربية مخترنة في ذاكرته بلا نظام معين ، فهي مفككة أو « محلّلة » ، ولكي يؤلف منها معجماً فإنه يصنّفها على قاعدة معينة ، أي يركبها تركيباً جديداً ، فيجعل الكلمات التي تبدأ بحرف الألف في باب ، كمثل الكلمات

(أكل ، أمر ، أنس ... ) ، ويجعل الكلمات التي تبدأ بحرف الباء في باب آخر ، كمثل الكلمات ( برق ، بدا ، بلد ) ، وهكذا ... فمن أراد الاستفادة من هذا المعجم ، فإنه ( يصطفي ) الكلمة التي يريد معرفة معناها من بين كلمات هذا المعجم . وتصنيف الكلمات بحسب حروفها ( يلائم ) طالب العلم لأنه ييسر له اصطفاء الكلمات التي يريدونها .

ج- المدرسة مثل واضح على التركيب التصنيفي . إذ يصنف المعلمون الطلاب في صفوف ( فصول ) على أساس السنّ والمعرفة ، وهو مما ( يلائم ) التدريس وييسره ، وفي آخر العام الدراسي ( يصطفي ) المعلمون من الطلاب أفضلهم لترفيعهم إلى الصف التالي .

د- والسيدة تصنف مواد مطبخها بحسب أنواعها ، والصيدلي يصنف أدويته في أماكن خاصة بحسب أنواعها ، وكذلك بائع القماش وبائع الأدوات الكهربائية وغيرهم .

### التركيب التلاؤمية الاصطفائية في سور ( الم )

لقد اعتنت سور ( الم ) بعرض كثير من التراكيب التصنيفية الاصطفائية ، غير أن معظمها يتعلق بتراكيب المجتمعات البشرية ، أي ( الملائ ) الإنساني . ولذلك سأعرض هذه التراكيب ، إن شاء الله ، في بحث ( الملائ ) ، وأكتفي هنا بعرض بعض التراكيب التصنيفية غير البشرية :



## أ - تصنيف الأماكن :

صنّف الله الأماكن في هذه الأرض بحسب شرفها ، واصطفى منها أشرفها ، وهو المسجد الحرام ، ليكون خيراً مكاناً للعبادة ، وليكون قبلة للمصلين في جميع أنحاء الأرض ، وليكون مكاناً للحج . وقد ذكرت ذلك سور ( الم ) في الآيات التالية :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: ١٢٥، ١٢٦).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ( آل عمران: ٩٦، ٩٧).

﴿ فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثَمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤)

## ب - تصنيف الأزمنة :

صنّف الله الأزمنة أيضاً حسب شرفها ، واصطفى أشرفها لأقدس الأعمال فقد اصطفى شهر رمضان على الأزمنة ، فجعل فيه نزول القرآن الكريم ، وجعل فيه فريضة الصيام : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ

القرآن هُدى للناس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهرَ فليصمه ﴿ ( البقرة : ١٨٥ )

كما اصطفى الله ليلة القدر من هذا الشهر الكريم ، وكذلك اصطفى العشر الأوائل من شهر ذي الحجة للقيام بأعمال الحج ، واصطفى اليوم التاسع من ذي الحجة للوقوف بعرفة ليكون يوم الحج الأكبر .

### المؤمن يحسن الاصطفاء :

يعتمد الاصطفاء السليم على حسن تقدير الأمور ودقة التمييز فيما بينها . وأخطر امتحان اصطفاء يمر بالإنسان في حياته ، هو انتقائه للدين الحق الذي يقوده إلى السعادة الدائمة . وقد عرض الله على البشر دينه وشريعته خير عرض ، مبيناً لهم أسسها واعتمادها على الحقائق والحكمة والعلم والفضيلة ، ثم ترك لهم حرية الاختيار بين الإيمان بها والكفر بها ، فقال : ﴿ لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ ( البقرة : ٢٥٦ ) .

كما ربّى الدين الحنيف أتباعه على حسن اصطفاء السلوك الجيد في معاملة الناس ، إذ يقول ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى ﴾ ( البقرة : ٢٦٣ ) ، فخير للإنسان أن لا يتصدق على فقير مُطِيباً نفسه بكلمة لطيفة ، من أن يتصدق عليه ويسمعه قولاً جارحاً .

وتحث سورة البقرة أغنياء المؤمنين على أن يصطفوا لصدقاتهم أفضل الفقراء ، وهم الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله وتعففوا عن طلب الصدقة : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفَافاً ﴾ ( البقرة : ٢٧٣ ) .

وتثني سورة البقرة على الملك طالوت إذ اتبع أسلوباً حكيماً في اصطفاء جنود جيشه لمقاتلة أعدائه الأشداء ، فعندما مرَّ هو وجيشه بأحد الأنهار ، خيرهم بين الشرب من النهر وبين مصاحبته إلى المعركة ، فمن شرب من النهر أبعدته عن جيشه ، ومن صبر على العطش صاحبه إلى المعركة . وهكذا لم ينضمَّ إلى جيشه إلا الأشداء في أجسامهم الأقوياء في إيمانهم ( الآية ٢٤٩ ) .

وحثت سورة البقرة المسلمين على اختيار الزوج على أساس الإيمان ، فالأمة المؤمنة خير من الحرة المشركة ، ولو أعجبهم جمال المشركة أو مالها . وعلى المسلمة أيضاً أن تصطفي الزوج المؤمن ولو كان عبداً على المشرك الجميل الغني ( البقرة : ٢٢١ )

جهاز إدراك التلاؤم : القلب :

يختلف الناس في اصطفتائهم ( اختيارهم ) لطريقة من بين عدة طرق تُعرض عليهم . ويعود السبب في ذلك إلى الاختلاف في دقة التمييز بين

ما يلائم الإنسان وما لا يلائمه ، وهذا بدوره يرجع إلى اختلاف ( حاسة إدراك التلاؤم ) عند البشر . وهذه الحاسة موطنها ( قلبُ ) الإنسان .

ولست أعني بهذا ( القلب ) تلك الكتلة اللحمية التي في صدر الإنسان والتي وظيفتها ضخّ الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، ولكن القلب الذي أعنيه هو جهاز غيبي ، وهو الذي تعنيه الآيات القرآنية العديدة ، فهو موطن الاطمئنان : ﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾ ، وهو موطن العواطف من رعب ورحمة وحسرة وألفة ، وذلك كما في الآيات التالية : ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ - (آل عمران : ١٥١) - ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ - (الحديد : ٢٧) - ﴿ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم﴾ - (آل عمران : ١٥٦) - ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ (الأنفال : ٦٣) .

والقلب الغيبي السليم يستجيب بصورة فطرية وتلقائية لما يُمدّه به جهازه العقلي من أفكار وأحكام ، ولما تُمدّه به الأجهزة الأخرى الملحقة بالعقل كالسمع والبصر واللمس . وأما القلب الغيبي المريض فهو الذي يرفض ما يحكم به العقل والسمع والبصر وهذا ما نجده في الآيتين : ﴿لقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ - (الأعراف : ١٧٩) - ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ - (الحج : ٤٦) .

وهذه الآية الأخيرة تشير إلى أن هناك علاقة ما بين القلب الغيبي والقلب اللحمي ، فهي تنصّ على أن القلب الغيبي يوجد في الصدر إلى جانب القلب اللحمي . وهذان القلبان يؤثر أحدهما في الآخر . فإذا خاف الإنسان - والخوف موطنه القلب الغيبي - أصبح وجهه شاحباً مصفراً ، وذلك لأن الخوف أثر في قلبه اللحمي فتباطأ ضخه للدم ، فقل توارد الدم إلى الوجه ، فظهر عليه الاصفرار .

وهذا لا يناقض قوله تعالى ﴿ ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ﴾ ، فإن كلمة ( قلبين ) في هذه الآية لا تعني قط القلب اللحمي ، إذ لم يرد القلب في القرآن بالمعنى اللحمي أبداً ، بل ورد فقط بمعنى القلب الغيبي . فالقرآن مثلاً حين يصف القلب بالمرض فيقول ﴿ في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ﴾ ، لا يعني أبداً أن قلوب المنافقين اللحمية مريضة بالأمراض الطبية المعروفة ، فقد تكون قلوب المنافقين أو الكفار اللحمية قوية معافاة من الناحية المادية ، لكن قلوبهم الغيبية هي المقصودة بالمرض .

وعلى هذا فيكون معنى الآية : ما جعل الله لرجلٍ من قلبين غيبين في جوفه ، والله تعالى أعلم .

\* \* \* \*



## الباب الثاني

الفصل الأول - التلاؤم الكوني

الفصل الثاني - تحدي الناس بتركيب كائن حي





# الفصل الأول

التلاؤم الكوني

## التركيب والتحليل طريق معرفة الله

لقد امتاز القرآن الكريم على سائر الكتب بأنه دعا الإنسان دعوات متكررة إلى معرفة الله تعالى بالتفكير ، وما التفكير إلا تركيب وتحليل كما مرّ سابقاً .

فإن التفكير السليم يقود إلى أن وجود ( التلاؤم ) بين أجزاء الشيء المصنوع بحيث يؤدي إلى هدف أو غاية من صنعه هو دليل قاطع على وجود صانع له يتصف بالإرادة والقدرة والعلم

إن الصدفة العمياء لا يمكن أن تخلق كوناً متلائماً متوازناً وعلى درجة عظيمة من التعقيد . ولا يمكن لعوامل الصدفة كالزلازل والبراكين وعوامل التعرية الأخرى كأمواج البحار وتدفق مياه الأنهار والأعاصير ، وتفاوت درجات الحرارة - لا يمكن لهذه العوامل أن تخلق جهاز تلفاز مثلاً ، ولا أن تسطر على صفحة الرمل في الصحراء بيت شعر واحد للمتنبي ، إذ لم يحدث ذلك قط ، ولم يعثر أي بشر على شيء من ذلك قط .

فكيف يمكن أن يقبل عاقل بأن أجهزة جسم الإنسان البالغة التعقيد، من عين تبصر ، وأذن تسمع ، وجهاز دوراني يوزع الغذاء بالدم على سائر الأعضاء ، بأن هذه الأجهزة هي من صنع صدفة عمياء عشواء؟! لقد جعل القرآن مجال هذا التفكير الكون بأسره ، والنفس البشرية ذاتها إذ قال ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) وإذ قال: ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ (الروم: ٨).

وقد ورد في سور (الم) عدة آيات تتناول الاستدلال على الله تعالى بالتفكير في خلقه . فمن ذلك :

أ - ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة: ٢١، ٢٢).

ب - ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة : ١٦٤) .

ج- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ( آل عمران : ١٩٠ ، ٩١ ) .

د- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ ... قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ( العنكبوت : ١٩ - ٢٠ ) .

هـ- ﴿ وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ﴾ ( العنكبوت : ٦١ ) .

و- ﴿ يَخْرُجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرُجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِن آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ( الروم : ١٩ - ٢٣ ) .

ز- ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ( لقمان : ١٠ ) .

ح - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ  
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ( لقمان : ٢٩ ) .  
 ط - ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ  
 جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ  
 لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ( السَّجْدَةُ : ٧ - ٩ ) .  
 هـ - وكذلك الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، من سورة آل عمران - والآيات  
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ من سورة الروم  
 - والآيات ٢٠ ، ٣١ من سورة لقمان - والآية ٢٧ من سورة السجدة ،  
 وَغَيْرِهَا .

\* \* \* \*

إنَّ هذه الآيات تدعو الإنسان إلى تأمل هذا الكون ، أي إلى تحليله  
 فكرياً إلى أجزاء متعددة لمعرفة دور كل منها وموقعه . فالكون ( تركيب )  
 ضخم واسع جداً ، يتركب من تركيبات جزئية عديدة . فهو مركب من  
 مجرّات عديدة ، وكل مجرة تتركب من مجموعات عديدة جداً من النجوم ،  
 وهذه النجوم ما هي في الحقيقة إلا شمس كشمسنا هذه أو أعظم منها  
 جرماً وضوءاً وحرارةً . فنجم الشعري مثلاً أثقل من الشمس بعشرين  
 مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس ، وهناك من النجوم ما هو أعظم  
 من الشمس مليون مرة . . ؟  
 وشمسنا - كما نعلم - تتألف من مواد تتفجّر تفجّراً نووياً هائلاً في كل  
 لحظة ، فتنشر منها حرارة هائلة ، حتى لتبلغ درجة الحرارة في نواة

الشمس ( ١٥ ) مليون درجة . . . !  
ولما كانت النجوم شمساً ، فإنها أيضاً شديدة الحرارة بسبب  
الانفجارات النووية الهائلة التي تحدث فيها باستمرار .  
فالكون كله متفجّر ، شديد ارتفاع درجات الحرارة . . . فكيف يمكن  
أن توجد في بعض زواياه أماكن مثل الأرض ، قد اعتدل جوّها وازدهرت  
فيها الحياة ملايين والسنين؟

أليست معجزة بقاء هذه الأماكن النادرة كالأرض هذه الأحقاب الطويلة  
دون أن يصيبها شيء من الانفجارات النووية الهائلة بضرر؟!  
أليس أغرب من ذلك أيضاً أن تكون جهنم أخرى قريبة جداً من  
سطحها ، هي أعماق الأرض وباطنها الملتهب ، والذي تشعر أحياناً ببعض  
زمجراته حينما يحدث الزلزال في منطقة من مناطق الأرض ، أو حينما  
يصبّ بركان من البراكين صخوره المنصهرة على سطح الأرض؟!  
إن الحياة على سطح الأرض تقع بين نارين هائلتين ، أو قُلْ نيران  
هائلة : نيران من فوقها ، من جميع جوانبها ، تتمثل في الشمس العاتية  
المحيطة بها من كل جانب ، ونيران من تحتها تكمن في مركزها!  
كيف يحدث هذا؟

لا بدّ أنّ هناك من يُلجم هذه القوى الجبارة فيلزمها حدوداً لا تستطيع  
تجاوزها . لا بدّ أن هناك من يُحدث تلاؤماً وتوازناً بين القوى المسيطرة  
على الكون فلا تطفئ ، ولا تدمر الحياة .  
إنه الله .

## التلاؤم بين الأرض والشمس والقمر :

قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ ( العنكبوت : ٦١ ) . لقد جعل الله الأرض في موقع يبعد بعداً مناسباً عن الشمس ، فلو اقتربت الأرض من الشمس قليلاً ، لاحتقرت الأحياء التي تعيش عليها ، ولو ابتعدت عنها قليلاً لتجمدت هذه الأحياء وماتت ، فبعد الأرض عن الشمس هو البعد ( الملائم ) للحياة .

وكذلك لو كانت الأرض أقرب أو أبعد مما هي عليه عن القمر لحدثت كوارث على الأرض كطغيان مياه المحيطات على اليابسة بسبب تزايد المدّ .

فبعد الأرض عن القمر هو أيضاً البعد ( الملائم ) لازدهار الحياة .

## طبقة الأوزون الحافظة للحياة :

قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ( البقرة : ٢٢ ) . فالسمااء بناء وسقفها هو الطبقة الجوية التي تعلق رؤوسنا ، وهذه الطبقة الجوية تحوي طبقة صغيرة من غاز ( الأوزون ) ، وهي تعمل عمل مصفاة رائعة ، إذ تسمح بمرور بعض الأشعة الشمسية النافعة للأحياء إلى الأرض ، فتمدهم بالطاقة اللازمة لحياتهم ، لكنها

تمنع دخول الإشعاعات الضارة ، التي لو تسربت إلى سطح الأرض لقصت على الأحياء .

فتبارك الله الحافظ القائل ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ ( الأنبياء : ٣٢ ) .

الجبال تحفظ توازن الأرض

قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ( لقمان : ١٠ )

إن سطح الأرض يتعرض للاضطراب والاهتزاز بسبب عوامل كثيرة كالحرارة الهائلة التي في باطنها ، وحركات الرياح والأعاصير ، وجريان الأنهار . وقد جعل الله الجبال بأثقالها العظيمة ( رواسي ) أي مثبتات للأرض تمنع عنها الاضطراب والاهتزاز ، وتحفظ استقرارها .

فالجبال هي الحل ( الملائم ) لمشكلة اضطراب سطح الأرض .

التوازن بين غاز الكربون وغاز الاوكسجين :

الأحياء جميعاً تأخذ الاوكسجين من الهواء لتنفس به ، أي لتحرق به أغذيتها الكربونية الهيدروجنية ، فتدفع بها جسمها وتستمد منها الطاقة اللازمة لحركتها ، فيخرج الاوكسجين في هواء الزفير متحداً مع الكربون ، ومشكلاً غاز ثاني أكسيد الكربون الذي لا يصلح للتنفس .

ولو بقيت الأحياء تستهلك أوكسجين الهواء محوَّلةً إياه إلى غاز الكربون ،  
لاستهلك جميع أكسجين الهواء ، وأصبح الهواء جميعه غير صالح للتنفس ،  
ولمات جميع الحيوان والإنسان .

غير أن الله سَخَّر النباتات لتفكيك غاز الكربون إلى عنصريه  
الأوكسجين والكربون . فأما الأوكسجين فيعود إلى الهواء ليعين الأحياء  
على التنفس مرة أخرى . وأما الكربون فيستفيد منه النبات فائدة  
عظيمة ، إذ يحوِّله بتكنولوجيا إلهية معجزة إلى مواد نشوية ، تتحول إلى  
مواد سكرية ( كما في العنب والبلح ) ودهنية ( كما في زيت الزيتون )  
وغيرها من الأغذية الضرورية للإنسان :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ لقمان :  
( ١٠ ) .

وهكذا يبقى التوازن محفوظاً بين الاوكسجين وغاز الكربون في الجو  
لا يطغى أحدهما على الآخر ، مما ( يلائم ) جميع الأحياء على سطح  
الأرض .

### المعادلات الفيزيائية والكيمائية والتلاؤم :

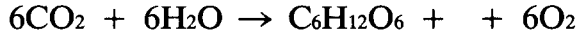
من المعلوم أن العلم الحديث قائم في أساسه على اكتشاف المعادلات  
( القوانين ) الفيزيائية والكيمائية التي تترابط بها الظواهر الكونية  
المتعددة ، من مادة وطاقة بأنواعها المختلفة الإشعاعية والكهربائية



والحرارية والضوئية والكيميائية :

والمعادلة أشبه ما تكون بالميزان ذي الكفتين اللتين تتساوى الكميتان الموضوعتان فيهما وزناً ، وإن اختلفتا حجماً .

ومن المدهش حقاً أن النباتات تنمو ويزيد وزنها وحجمها ، طبقاً لمعادلات كيميائية دقيقة جداً . فبعملية التركيب الضوئي ( الكلوروفيلي ) مثلاً يستطيع النبات أن يركب المواد السكرية النشوية طبقاً للمعادلة التالية :



أوكسجين + سكر → ماء + ثاني أكسيد الكربون  
ماء + ثاني أكسيد الكربون ← سكر + أوكسجين

وهي معادلة متوازنة توازناً دقيقاً ، فإن العناصر الداخلة في التفاعل من كربون وأوكسجين وهيدروجين تساوي في أوزانها وعدد ذراتها العناصر الناتجة من التفاعل .

وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ ( الحجر : ١٩ ) ، حيث ذكرت الآية بوضوح تام أن عملية الإنبات ( أي نمو النباتات ) تتم بصورة موزونة .

ومن ناحية أخرى ، نقول : إن البذرة النباتية حين توضع في التراب وتروى بالماء ، فإنها تأخذ بالفتح والنمو ، وذلك بانتقاء ( باصطفاء ) عناصر

معينة من التربة وبأوزان معينة، كالكالسيوم والفوسفور والبوتاسيوم والحديد، مُركّبة منها جسمها المتنامي وغذاءها الخاص. إنها عملية اصطفائية انتقائية تركيبية، يتم فيها (تلاؤم) عجيب، إذ تنتقي النبتة ما يلائمها من العناصر وتترك ما لا يلائمها، فما الذي يجعلها تترك هذا العنصر وتأخذ ذاك العنصر؟ وكيف تركيب النبتة هذه التراكيب الكيماوية الرائعة النافعة، التي يعجز عن تركيب مثلها أعظم علماء البشر، طبقاً لمعادلات كيماوية موزونة؟! هل تعلمت النبتة ذلك في الجامعات؟

فسبحان الله العليم القدير الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا، أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ؟! بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: ٦٠).

إن هذه العملية الإنبائية (تلائم) النباتات والحيوانات والإنسان لأنها تحافظ على حياتهم جميعاً

**التلاؤم في جسم الانسان : الجهاز الهضمي :** حين يتغذى الإنسان بالأغذية النباتية أو الحيوانية ، تحدث ملاءمات عجيبة ليست من صنعه . ففي جسم الإنسان جهاز هضمي متقن الصنع ، يبدأ بالفم الذي يحوي فيما يحوي أسناناً قاسية ملائمة تماماً لمضغ الطعام وتحليله . وقد وضعت الأسنان في مكانها الملائم . وتفرز غدد خاصة ، موضوعة في الفم أيضاً ، سائلاً ملائماً للطعام المضغ هو اللعاب ، الذي يمتزج

بالغذاء فيحوّله - بمعادلة كيمياوية موزونة - إلى مواد مهضومة هضماً جزئياً . ثم يأتي دور اللسان ليدفع الطعام إلى أنبوب خاص هو المريء ، ومنه إلى المعدة ، التي تقوم بأعمال كيمياوية رائعة . . . تتم في داخل أجسامنا دون علمنا ، ودون أن نعي منها شيء . . !

إنها أعمال موزونة منظمة متلائمة فيما بينها وملائمة لبقاء حياتنا . فَمَنْ وراء هذه العمليات المعقدة المبنية على علم واسع وقدرة عجيبة ؟

إنه الله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ . أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟ ﴾ ( السجدة : ٢٧ )

هذه بعض ( التلاؤمات ) التي تجري تحت أبصارنا وفي داخلنا . وهناك العديد من العمليات التلاؤمية العجيبة التي لا يمكن إحصاؤها . فهناك مثلاً تلاؤم في الحجم بين فم الطفل الرضيع وحلمة ثدي أمه ، وتلاؤم بين تركيب لبن الأم وحاجات جسم الطفل الغذائية ، وتلاؤم بين الجزئين المكونين الأساسيين لجسم الجنين - مع أنها يتكونان في جسمين مختلفين - وهما : نطفة الرجل وبويضة المرأة .

وهناك تلاؤم في وضع شبكية العين الحساسة للضوء في موضعها الملائم في داخل العين ، بحيث تستقبل صور الأشياء المرئية ، وترسلها

بصورة لا نفهمها ، إلى المخ عبر أعصاب ملائمة فنشعر بها ونعيها . . . .  
إلى غير ذلك من العجائب العلمية الواقعية .

## التوازن بين الماء العذب والماء الملح :

إن معظم سطح الأرض مغطى بالبحار، أي بالماء المالح، وهناك نسبة بسيطة من الماء العذب الذي يجري على الأرض اليابسة أنهاراً أو يختزن في باطنها أو يشكل بعض البحيرات . وتستمد الأرض اليابسة ماءها العذب من البحار بواسطة الرياح والسحاب الذي ينزل مطراً ويجري أنهاراً تعود فتصب معظمها في البحار بعد أن يستفيد منها الإنسان في زراعته وغذائه .

وهناك نسبة ثابتة معينة بين الماء المالح والماء العذب . وهذه النسبة تبقى محفوظة بحيث يبقى الماءان متوازنين وملائمين للحياة : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (الرحمن: ١٩، ٢٠) . وقد ذكرت سور (الم) البحر والأنهار والمطر: ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ (لقمان: ٢٧) ، ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ (البقرة: ١٦٤) ، ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَابَةِ لَمَا يَتْفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾ (البقرة: ٧٤) ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان: ١٠) .

## توازن السفن في البحار :

ذكرت سورة البقرة ﴿ الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي يلائم حاجاتهم ، والسفن تجري مسافات طويلة محملة بالركاب والبضائع ، مدفوعة بقوى مختلفة الاتجاهات والشدات . فقوة الجاذبية الأرضية تشدها إلى الأسفل ، وقوة الرياح تشدها أفقياً إلى الأمام ، وقوة احتكاكها بالماء تشدها أفقياً إلى الوراء ، ودافعة أرخميدس تدفعها إلى الأعلى . وتتوازن هذه القوى بحيث تؤدي محصلتها الغرض المنشود من السفينة ، وهو السير الآمن الأفقي على سطح الماء . وقد بين الله لنا نعمة هذا التوازن الذي لا نشعر به إلا عندما يختل أحياناً بالأعاصير ، فقال ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ( لقمان : ٣٢ ) .

## التوازن الحراري فوق سطح الأرض :

من الدلائل على أن القرآن هو كتاب الله الحق ، توجيهه الأنظار إلى ظواهر كونية خاصة ، لا يمكن أن يحيط بأسرارها إلا الله ، فهي أوسع من أن يدركها إنسان بمفرده وقبل أن تتطور العلوم في العصور الحديثة . فمن ذلك لفته النظر إلى ظاهرة فلكية لم تكن معروفة من قبل ، واكتشفت حديثاً ، وهي دوران الأرض حول نفسها ، وهو ما ينتج عنه الليل والنهار على كل بقعة من بقاع الأرض . وقد أشارت كل من سورتي

البقرة وآل عمران إلى ذلك بقولهما : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ( آل عمران : ١٩٠ ) .  
فاختلاف الليل والنهار يعني تعاقبهما ، فيأتي الليل ثم النهار ثم الليل  
وهكذا .

وكان من الممكن - لولا إرادة الله - أن لا تدور الأرض حول نفسها ،  
فلا يتعاقب الليل والنهار على جميع أجزاء الأرض ، بل يبقى أحد نصفي  
سطح الأرض مواجهاً للشمس أبداً سرمداً فيكون في نهار دائم ، ويشتد  
حرّه المحرق فلا يصلح لمعيشة حيّ من الأحياء ، ويبقى النصف الآخر  
محبوباً عن الشمس أبداً سرمداً ، فيكون في ليل دائم ، ويشتد برده ،  
فلا يصلح للحياة .

كان من الممكن أن يحدث ذلك ، وهو يحدث فعلاً - كما ثبت حديثاً -  
بالنسبة إلى القمر الذي يدور حول الأرض ، فهو لا يدور حول نفسه ،  
بل يبقى أحد نصفي سطحه مواجهاً لنا ( أي للأرض ) باستمرار طيلة  
دورته الشهرية حول الأرض ، ويبقى النصف الآخر محبوباً باستمرار  
عن أنظارنا .

وقد نصّت آيتان قرآنيتان على إمكان ذلك بالنسبة إلى الأرض ،  
وهما : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .  
﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ  
اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ  
تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾ ( القصص : ٧١ ، ٧٢ ) .

وهناك ظاهرة فلكية أخرى ، تتعلق بالأرض والشمس ، تشير إليها الآية ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ ( آل عمران : ٢٧ ) . إن كلمة ( يولج ) تعني ( يُدْخِلُ ) فالله تعالى ( يُدْخِلُ ) الليل في النهار و( يُدْخِلُ ) النهار في الليل . وتوضيح ذلك كمايلي :

إن الزمن الأصلي المخصص لكل من الليل والنهار هو ١٢ ساعة فقط ، فهما في الأصل متساويان في فترتهما الزمنية ، وهو ما يحدث فعلاً في يومين فقط من أيام السنة ، وهما أول يوم من أيام الربيع وأول يوم من أيام الخريف . لكن الليل يأخذ في الطول بعد أول يوم من الخريف ، وذلك على حساب النهار ، فيصبح طول فترة الليل في أحد الأيام مثلاً ( ١٣ ) ساعة ، ويصبح النهار في نفس ذلك اليوم ( ١١ ) ساعة فقط . أي أن الليل ( يدخل ) في حصة النهار لمدة ساعة إضافية .

وعكس ذلك تماماً يحدث بعد أول يوم من أيام الربيع إذ يأخذ النهار شيئاً من الزمن المخصص أصلاً لليل .

وهذا ( الولوج ) لا يتم إلا بدوران الأرض حول الشمس . فالآية إشارة إلى هذه الظاهرة ، التي تتعاون مع ظاهرة دوران الأرض حول نفسها ، لإحداث توازن حراري على سطح الأرض ( يلائم ) الحياة الإنسانية كل الملاءمة ، فإن تعاقب الليل والنهار - كما أوضحت سابقاً - يمنع الحر القاتل للحياة والبرد المبيد لها ، وتعاقب الفصول الأربعة

(الربيع والصيف والخريف والشتاء) يوزع الحرارة كل سنة توزيعاً متفاوتاً ، وبشكل متلائم يسبب نزول الأمطار - بإذن الله - في مواعيد ملائمة تؤدي إلى ازدهار النباتات وسائر الأحياء .

### التلائم في جسم الجنين وأطواره :

قال تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٧) . والآية تلفت النظر إلى مراحل خلق الجنين ، أذ يبدأ خلقه من النطفة ، ثم يتطور إلى مرحلة نفسخ الروح مع خلق الحواس من سمع وبصر ، وجهاز الإدراك العقلي (الأفئدة) ، فلا تلده أمه إلاً وقد اكتملت فيه الأجهزة (الملائمة) لحياته البشرية .

إن خلق الجنين هو وحده يصفع منطق الملحددين الذين يتنكروا لعقولهم أنفسهم ويلقونها وراء ظهورهم حين يزعمون أن الصدفة العمياء هي التي تخلق كل هذا الإبداع التكنولوجي المدهش ، وكل هذه الأجهزة التي لم يستطع أذكى العلماء أن يخلق مثلها .





## الفصل الثاني

تحدّي الناس بتركيب كائن حي

لقد تحدّى الله العرب أن يركّبوا من حروف اللغة العربية سورة واحدة تتلاءم كلماتها فيما بينها بحيث تكون مثل سورة من سور القرآن . لكن هناك تحدياً آخر للبشر جميعهم أن يركّبوا من عناصر الأرض - التي أصبحوا يعرفونها الآن حق المعرفة - خلية حية واحدة . إن علماء هذا العصر يعرفون تركيب الخلية الحية ونسب العناصر الموجودة فيها كالكربون والاكسجين والبوتاسيوم وغيرها . وعناصرها متوفرة بين أيديهم .

والنماذج - التي عليهم أن يقلدوها وينسجوا على منوالها - هي أكثر من أن تُحصى ، وتقع بين أيديهم ، وهي كل هذه الكائنات الحية ، من الجراثيم إلى النباتات إلى الحيوانات إلى الإنسان .

والقوانين الفيزيائية والكيميائية التي تتحكم في العناصر والمركبات وأشكال الطاقة جاهزة لديهم .

فليركّبوا - إن استطاعوا - خليةً واحدة حية . ليركّبوا بعوضة واحدة !

لقد تحدّاهم الله في سورة البقرة - على لسان إبراهيم عليه السلام - حين تحدّى الطاغية النمرود أن يُحيي ويميت كما يفعل الله: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم: ربّي الذي يحيي ويميت. قال: أنا أحيي وأميت﴾ (البقرة: ٢٥٨) فلجأ هذا الملك إلى السفسطة والمراوغة: إذ زعم أنه يستطيع أن يعفوَ عن رجل من رعيته، قد حكمت عليه المحكمة بالإعدام، فيكون بذلك - بزعمه - قد أحياه. إنها سفسطة واضحة فإبراهيم يتحداه أن يُحيي كما يُحيي الله النباتات من التراب والماء، من العناصر الأرضية المعروفة، فيتهرب الطاغية هذا التهرب السخيف.

وكان بإمكان إبراهيم ﷺ أن يفحمه في هذا الأمر، فيتحداه أن يخلق كائناً حياً له ثلاث عيون وخمس أرجل مثلاً.

لكن إبراهيم أثر أن يفحم الطاغية، وألاً يدع له مجالاً للسفسطة والمراوغة، فقال له: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (البقرة: ٢٥٨).

إن الكائن الحي، أصغر كائن حي، تركيب إلهي لا يستطيع مخلوق أن يركّب مثله أبداً. وهناك إشارة إلى تحدّي القرآن للناس أن يركبوا بعوضة، وذلك في الآية ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة

فما فوقها ﴿ ( البقرة : ٢٦ ) وقد وردت هذه الآية بعد أن تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة من مثل القرآن . ويؤكد هذا التحدي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (الحج : ٧٣) .

### روعة تركيب الكائن الحي :

الكائن - كالإنسان مثلاً - مركب من عدة أجهزة متلائمة فيما بينها ، ولكل من هذه الأجهزة تركيب رائع . وقد دعانا الله إلى التفكير في تركيب الجسم الإنساني فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ؟ ﴾ ( الروم : ٨ ) . ويتركب الإنسان من بُنى رئيسة ثلاث هي :

#### أ - البنية المادية الجسمية :

التي تشير إليها الآية : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ (السجدة : ٧ ، ٨) . وهناك آية أخرى تشير إلى ما يلزم لحفظ هذه البنية المادية ، وهي ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟ ﴾ ( السجدة : ٢٧ ) ، فهي في حاجة إلى الماء والغذاء النباتي والحيواني .

## ب - البنية العلمية العقلية :

التي تشير إليها الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾  
(البقرة : ٣١) ، والآية ﴿ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا  
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾  
(البقرة : ١٥١) ، الآية ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا  
الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

## ج - البنية النفسية الروحية :

المشار إليها في الآية ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ﴾ ( السجدة :  
٩ ) . وأما أرقى حالة نفسية للإنسان - وهي التقوى - فتشير إليها آيات  
كثيرة من سور ( الم ) كالأية ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ  
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ( البقرة : ١٩٧ ) ، بل إن سورة البقرة افتتحت بذكر  
المتقين : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والإنسان يشارك الحيوان في البنية المادية ، لكنه يمتاز عليه بالبنية  
العلمية العقلية . والبشر جميعاً يشتركون في البنيتين المادية والعقلية ، غير  
أن المؤمن يتميّز على سائر البشر بكمال البنية النفسية .

## التلاؤم في أجهزة جسم الإنسان :

يتركب جسم الإنسان من أجهزة عجيبة متعددة (متلازمة) فيما

بينها ، يكمل بعضها بعضاً ، وهي كالبنيان المرصوص ، يشدّ بعضه بعضاً ، ويعمل كل منها بنظام تام ويقوم بوظيفة أو وظائف محددة له . فالجهاز الهضمي يعمل على تحويل الطعام الوارد إليه إلى مركبات بسيطة يدخلها إلى الجهاز الدوراني ( الدم ) الذي يوصلها إلى جميع أجزاء الجسم ليمنّدها بالطاقة اللازمة لها . والجهاز الهضمي يقوم بعمليات كيميائية مذهشة يحوّل بها مختلف الأطعمة الواردة إليه ، إلى لحم وعظم وشعر وأظافر هي جسمنا الإنساني .

أما جهاز الدوران فيعتمد على حركة القلب الجبارة التي تضخّ الدم إلى جميع أجزاء الجسم من خلال شرايين وأوردة وأوعية دقيقة جداً كالشعرة تسمى الأوعية الشعرية ، وبعضها خاص بنقل الدم النقي ذي اللون الأحمر القاني الحاوي للأوكسجين ، والبعض الآخر خاص بنقل الدم القاتم الحاوي لغاز الكربون .

ويضخ القلب هذا الدم القاتم إلى الرئتين - وهما جوهر الجهاز التنفسي - حيث تحوّلان الدم القاتم إلى دم أحمر قانٍ بواسطة امتصاص أوكسجين الهواء بالشهيق .

وهناك أيضاً الجهاز العظمي والجهاز العضلي والجهاز التناسلي والجهاز العصبي الذي فيه مراكز الحسّ ومراكز الحركة ومراكز التفكير ( العقل ) التي تفوق في تركيبها المعجز أي جهاز كمبيوتر صنعه الإنسان ، بل إن

جهاز الكمبيوتر ما هـ إلا صنعة من صنائع العقل البشري، وهل يُقاس  
المصنوع بالصانع؟

وهناك أيضاً من أجهزة الجسم الغُدد الصمّ والجلد والحواسّ كالسمع  
والبصر: ﴿وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾  
(السجدة : ٩) .

إنها جميعاً أجهزة بديعة رائعة تعمل متلائمة متناسقة متعاونة لحفظ  
حياة الأفراد والجماعات .

وإن التلاؤم في الأجرام السماوية الذي بحثته في الفصل السابق ،  
والتلاؤم في الأحياء جميعاً وبخاصة في جسم الإنسان الذي بحثته في  
الفصل الحالي ، ليدلان دلالة قاطعة على الله الحكيم القدير العليم  
الرحيم .

فما هو واجب الإنسان تجاه هذا الرب العظيم بعد أن يدرك وجوده  
وعظمته؟

هذا ما سوف أجيب عنه إن شاء الله في الفصول القادمة .

\* \* \* \*

## الباب الثالث

التلاؤم في التشريع الإسلامي  
الفصل الأول - الإسلام تركيب متلائم رائع  
الفصل الثاني - العبادات والمحرمات الإسلامية والتلاؤم

## الباب الثالث

### التلاؤم في التشريع الإسلامي

إن هذا الباب يتناول التلاؤم في أمرين : أولهما : التلاؤم الكائن فعلاً بين تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، أي أن هناك ارتباطاً أو خطة واحدة تربط أركان هذا الدين الحنيف بعضها ببعض ، فتجعله بنياناً واحداً متماسكاً قائماً على أساس واحد متين ، وتجعله تركيباً واحداً منسجماً متناسقاً ، جميلاً .

وثانيهما : التلاؤم الذي تخلقه التعليمات الإسلامية من صلاة وصيام وزكاة وغيرها في نفس المؤمن وفي حالة المجتمع .



## الفصل الأول

### الإسلام تركيب متلائم رائع

إن دين الإسلام هو دين الله الذي أنزله على جميع الرسل وأمر به جميع الأنبياء وأتباعهم ، وذلك كما أوضحته سور ( الم ) في الآيات التالية :

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ . وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اسْلِمْ . قَالَ : اسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ۱۳۰ - ۱۳۲).

غير أن أكمل أشكال هذا ( الإسلام ) هو ما أنزله على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ( آل عمران : ۱۹ ) ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ( آل عمران : ۸۵ ) .

### أركان الإسلام الخمسة :

لقد حلّل رسول الله ﷺ البناء الإسلامي الشامخ إلى خمسة عناصر حين قال : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً

عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » -  
(متفق عليه - مشكاة المصابيح - رقم ٤).

وألحظ هنا استعمال الرسول ﷺ لكلمة « بُني » مما يدلّ على أن الإسلام « بناء » ، أي « تركيب متلائم » ، ولكل بناء خطة يُبنى وفقاً لها ، أو هندسة يقوم عليها ويتلاءم معها .

فما هي الهندسة التي قام عليها « بناء » الإسلام ؟

هندسة ( النفي فالإثبات ) أساس الاسلام :

سئل ابن تيمية - رحمه الله - فيما أذكر ، عن العاصي يريد أن يتوب ، فهل يبدأ توبته بالاستغفار أم بالصلاة على النبي ﷺ ؟ فأجاب : « الثوب الوسخ في حاجة إلى الصابون قبل أن يوضع عليه الطيب » ، أي أنه عليه أن يبدأ بالاستغفار من ذنوبه ، إذ أن الاستغفار تطهير للقلب ، أما الصلاة على الرسول فهي تعطير للقلب .

وإذا تفحصنا أركان الإسلام ، وجدناها مبنية على نفس هذه ( الهندسة ) - أي ( التطهير ثم التعطير ) أو ( النفي ثم الإثبات ) . فلنقم بجولة في أركان الإسلام لنرى كيف أن هذه الأركان تتلاءم مع هذه ( الهندسة ) .

## النفي والإثبات في الشهادتين

إن العقل والفطرة يشهدان شهادة لا ريب فيها بأن الله وحده هو إله هذا الكون وربّه ومبدعه . غير أن هناك من البشر من يتخذ آلهة أخرى من دونه مدفوعين بأهوائهم .

ومن هنا وجب على الإنسان قبل أن يؤمن بالله تعالى ، أن ينسف ما في قلبه من الآلهة الباطلة ، وأولها هوى النفس : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ؟ ﴾ ( الفرقان : ٤٣ ) .

ومن هنا جاء شعار الإسلام الأول ( لا إله إلا الله ) ، نافية الآلهة الباطلة بقول ( لا إله ) ، ومثبتاً ألوهية الله وحده بقوله ( إلا الله ) . فهذا الشعار يتضمّن ( النفي فالإثبات ) أو ( التطيهر فالتعطير ) . ونظير ذلك قوله تعالى في إحدى سور ( الم ) : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ ( البقرة : ٢٥٦ ) ، فقد قدّمت الآية الكفر بالطاغوت ، أي بالآلهة الباطلة ، على الإيمان بالله .

وأما الشهادة الأخرى ( شهادة أن محمداً عبد الله ورسوله ) ، فهي إثبات لحقيقة مشرقة أخرى ، تربط القلب بقدوته البشرية ، الرسول الكريم ، وهو القدوة الكاملة الوحيدة للمسلم . وهذه الشهادة تتضمن - تلميحاً لا تصريحاً - نفيّاً لكل قدوة بشرية غير محمد ﷺ ، فكأنها تعني ( لا قدوة لنا إلا محمد ) ، فلا نتبع تشريعاً غير تشريعه .

## النفي والإثبات في الصلاة

أما النفي أو التطهير في الصلاة ، فيشمل ناحيتين : أولاهما التطهير المادي بالوضوء ، وبإزالة النجاسات عن الثوب والبدن والمكان ، وثانيتها: التطهير المعنوي بردع النفس عن الفحشاء والمنكر .

وأما الإثبات أو التعطير في الصلاة ، فنجد في ذكر الله : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ ( طه : ١٤ ) .

ونجد النفي ثم الإثبات اللذين تشملهما الصلاة في آية واحدة من سور ( الم ) هي : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ ( العنكبوت : ٤٥ )

وهناك تعطير مادي أيضاً في الصلاة ، يتناسق مع التعطير الروحي . فمن سُنن الصلاة التطيّب بالروائح العطرية ، بخاصة في صلاة الجمعة . ويرافق ذلك نفي مادي وذلك بإبعاد الروائح الكريهة كالثوم والبصل عن المساجد .

والخلاصة أن الصلاة تتضمن النفي للأهواء النفسية والأقذار الجسمية والروائح الكريهة ، والإثبات لذكر الله تعالى والتعطير المادي أيضاً

## النفي والإثبات في الصيام

إن في الصيام تطهيراً مادياً وتطهيراً معنوياً . أما التطهير المادي فيتجلّى

في أن الجسم حين الصيام يتفرّغ للتخلص من السموم والرواسب والفضلات التي تتراكم في أعضائه في الأشهر التي تسبق رمضان . كما يضطر إلى استهلاك الشحوم المخترنة فيه التي يسبب تراكمها ضغطاً على نشاط الجسم وعلى القلب بصورة خاصة .

وأما التطهير المعنوي في الصيام ، فيتجلى في نفي الأهواء وأمراض القلب التي تحث المرء على اغتياب الناس ومقابلة عدوانهم بالسباب والشتيمة . فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ » ( مشكاة المصابيح - ١٩٩٩ ) . وقال رسول الله ﷺ : « الصيام جُنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن شاتمهُ أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم ، إني صائم » .

ويتجلى التطهير المعنوي ( النفي ) أيضاً في الاعتكاف المسنون في المسجد في العشر الأواخر من رمضان . فالاعتكاف في المسجد يعزل المسلم عن المجتمع العادي المليء بالصخب واللغو ، الذي لا يستطيع فيه المرء إلا أن يسمع أو يبصر بعض المحرمات التي تخدش روحه ، سواء أكان ذلك في الشوارع أم في البيت . فالاعتكاف نفي لهذه المعكرات لصفو الروح .

وأما الإثبات في الصيام فيتجلى فيما يلي :

أ - الصيام إثبات لإرادة الإنسان وتقوية لها بكف النفس عن شهوة الطعام والشراب والفحشاء والمنكر .

ب - الصيام تكبير لله وتعظيم له تعالى ، فهو ذكر له عز وجل وشعور بقربه قال تعالى : ﴿ ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون . وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٥ ، ١٨٦) .

ج - إذا جاءت ليلة القدر في رمضان ، فإنها تعمر القلب بالطمأنينة والسلام : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

د - في صيام رمضان إثبات لفرحتين تغمران القلب : فرحة الصائم حين يفطر وفرحته حين يلقي ربه .

## النفى والإثبات في الزكاة

الزكاة عمل مادي مالي ، لكن له آثاراً نفسية بالغة الخطورة ، فمن قام فدفع الزكاة فإنه بذلك يُطهّر نفسه من هوى الشحّ الذي لا تخلو منه نفس بشرية ﴿ وأحضرت الأنفسُ الشحَّ ﴾ ( النساء : ١٢٨ ) ﴿ ومَنْ يوقْ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ( الحشر : ٩ ) .

هذا التطهير من هوى النفس والنفى لشحّها ، يعقبه إثبات لذكر الله في القلب : فدافع الزكاة يدفعها وهو يعلم أنه ينفق في سبيل الله :

﴿ وما آتيتم من زكاةٍ تريدونَ وَجْهَ اللَّهِ فأولئك همُ المضعفون ﴾ (الروم : ٣٩)

هذا ما يحدث بالنسبة إلى الفرد دافع الزكاة من نفي وإثبات . أمّا ما يحدث منها بالنسبة إلى المجتمع ، فهو أمر خطير جدير بالبحث : فدفع الغني الزكاة إلى الفقير يؤدي إلى تطهير المجتمع من مصيبة الفقر ، ونفي الحقد والصراع بين طبقاته ، وإثبات للمحبة والوثام بينها .

### النفي والإثبات في الحجّ

يبدأ الحاج حجّه بأعمال الإحرام ، مفتتحاً ذلك بالاغتسال وهو تطهير مادي ونفي للأقدار عن الجسم .

ثم ينزع الحاج ثيابه المخيطة ويلبس غير المخيطة ، وهو عمل مادي ، إلّا أنه يرافقه أثر نفسي تطهيري بالغ . فنزع الثياب المخيطة وما فيها من تعقيد وبذخ وترف ، ينزع من النفس ميلها إلى التكبر والتميّز عن الناس ، فحين الإحرام يرى الغني نفسه كالفقير ويرى رأسه كرأس الفقير لا يتميز عنه بطاقيه مزخرفة أو عمامة مزينة أو تاج مرصع .

ويُطلب من الحاجّ أيضاً أن يطهر نفسه أيضاً من الأهواء . قال تعالى : ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فرّضَ فيهنّ الحجّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحجّ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ونحر الأضحية في الحجّ - يجعل دمها يسيل ، فهو تطهير لها من الدم النجس وإثبات للحم

الطاهر . وأما دفع نفقات الحج فهو تطهير للنفس من الشحّ وإثبات لخُلُقِ  
السماحة والكرم .

وفي الحج يتجلى الإثبات الأعظم بذكر الله ، بعد تطهير النفس من  
أهوائها . قال تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ  
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي  
أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (الحج : ٢٧ ، ٢٨) . لقد  
بينت الدراسة السابقة مدى ( التلاؤم ) والتوافق الذي انبنت عليه أركان  
الإسلام من حيث اشتراكها جميعاً في مبدأ ( النفي ثم الإثبات ) .  
وفيما يلي أُبينُّ - إن شاء الله - التلاؤم والتوازن اللذين تحدّثهما  
التشريعات الإسلامية في المجتمع الإسلامي وفي الفرد المسلم .

\* \* \* \*



## الفصل الثاني

### العبادات والمحرمات الإسلامية والتلاؤم

إن العبادات الإسلامية من صلاة وصيام وغيرها تلائم صحة الإنسان الجسدية والروحية ، فهي تعينه على حفظ توازنه النفسي وسلامته الجسدية .

#### أ - التوازن في الصلاة :

إن المؤمن بالضرورة يخالط أفراد أسرته في حياته اليومية ، كما يخالط الناس ، فلا بدّ من أن تؤدي هذه المخالطة إلى وقوعه في صغائر الذنوب ، مما يخلّ بتوازنه الروحي . والصلاة تعيد إلى الإنسان هذا التوازن الروحي ، ففي الحديث الشريف : « أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا » .

وجاء في سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ( ٤٥ ) .

## ب - التلاؤم والتوازن في الصيام :

يسيء الإنسان استخدام معدته طيلة أحد عشر شهراً كل سنة ، مما يخل بتوازن جسمه الصحي ، لكن صيام رمضان - إذا تم بصورته الشرعية الأصلية - يعيده إلى الحالة الصحية والنفسية الملائمة والمتوازنة .

## ج - التلاؤم والتوازن في الزكاة :

إن فريضة الزكاة تقيم توازناً وتلاؤماً بين طبقتي المجتمع من الفقراء والأغنياء ، ولولاها لقام صراع مرير بينهما ، فالزكاة تلائم كل مجتمع لأنها تعافيه من أخطر أمراضه .

## د - التلاؤم والتوازن في الحج :

سبق أن بيّنت أن الصلاة تعيد التوازن الروحي إلى المؤمن وذلك بتطهيرها لنفسه من الذنوب الصغيرة . غير أن الذنوب الكبيرة تخل بهذا التوازن إخلالاً عظيماً . وقد شرع الله الحج ليعيد التوازن الروحي للخطيء المسرف على نفسه ، ففي حديث شريف متفق عليه يقول ﷺ : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » (مشكاة المصابيح : ٢٥٠٧) أي أن الحج يغفر الذنوب صغيرها وكبيرها .

وكذلك فإن مكة مدينة فقيرة لأنها بلد غير ذي زرع ، فهي مختلفة التوازن الاقتصادي . وقدوم الحجاج إليها يلائمها لأنه يحدث فيها توازناً اقتصادياً .

## هـ - التلاؤم والتوازن في الشهادتين :

إن إيمان المسلم بالشهادتين ( أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ) ، وتكراره لهما بلسانه ، يحفظ توازنه النفسي من ناحية هامة ، وهي أن توحيد الله حصراً لعاطفة المؤمن وحبه وارتباطه بإله واحد ، يتوكل عليه وحده ، ويستمد منه العون وحده ، فلو آمن بأكثر من إله واحد ، لَشَتَّتْ عواطفه بين هذه الآلهة فيختل توازنه النفسي . قال تعالى في المشركين الذين تتوزع عواطفهم بين آلهتهم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشدَّ حُباً لله ﴾ ( البقرة : : ١٦٥ )

## التلاؤم والتوازن والمحرمات :

لقد حرّمت الشريعة الإسلامية أعمالاً معينة كالربا والزنى وشرب الخمر والقتل وقد وردت هذه المحرمات في سور ( الم ) . وتحريمها يلائم صحة الأفراد والمجتمع لأن ذلك يحفظ توازنهم :

الربا : لقد زعم قوم أن البيع والربا عمليتان تجاريتان متماثلتان : ﴿ ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا ﴾ ( البقرة : ٢٧٥ ) . ولكن الله ردّ عليهم بقوله : ﴿ وأحلّ الله البيع وحرم الربا ﴾ .

فلماذا أحلّ الله البيع وحرم الربا؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نحلل حالتي البيع والربا .

نعم إننا نجد في كلتا الحالتين طرفاً غنياً لديه فائض من البضاعة أو المال ، وهو البائع أو المقرض . والذين قالوا ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ لم ينظروا إلا إلى هذا الطرف الغني ، أي لم ينظروا إلا إلى أنفسهم الجشعة وإلى مصلحتهم الخاصة وإلى الربح الذي يقدمه إليهم كل من البيع والربا .

وتعامى هؤلاء عن الطرف الآخر ، ولم يجشموا أنفسهم مشقة تحليل حالتي هذا الطرف كلاً على حدة . ففي حالة البيع يكون الطرف الآخر - وهو المشتري - في حالة مالية حسنة ، فهو يشتري السلعة من البائع بكل يسر ، ويفاوضه مفاوضة النّد للنّد ، فلا شعور بالنقص ولا بالمهانة عند أحد منهما ، بل هناك توازن وتلاؤم نفسي بينهما .

وأما في حالة الربا ، فإن الطرف الآخر - وهو المستدين - يكون في حالة مالية منهارة ، ترافقها حالة نفسية حرجة وشعور بالنقص والمذلة .

ولما كان الخلق جميعاً عيال الله ، فإن الله تعالى نظر نظرة الرحمة إلى عياله الفقراء المحتاجين ، فأمر بالتخفيف عنهم وبإعادة ( التلاؤم ) إلى نفوسهم ، فحث على تقديم المال إليهم قرضاً حسناً لا ربا فيه ، بل شجع الدائن على عدم الإلحاح عليهم بتسديد الدين في مواعده المتفق عليه : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ ( البقرة : ٢٨٠ ) ، بل

شجع على التنازل عن الدين بكامله إن كان إعسارهم شديداً : ﴿ وأن  
تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾  
لهذا ﴿ أحل الله البيع وحرم الربا ﴾ .

ذلك شرع الله الرحيم الذي يعمل على إقامة التلاؤم والوثام بين  
المؤمنين .

ب - الزنى : إن الزواج مطلب غريزي اجتماعي حث عليه الشريعة  
الإسلامية . والدافع إليه دافع طبيعي هائل أودعه الله في النفوس لحفظ  
النوع البشري وتكاثره حتى يرث الله الأرض ومن عليها . قال تعالى  
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ ( آل عمران :  
١٤ ) .

ومثّل هذا الدافع الجنسي كمثل نهر عظيم يحدث له فيضان كبير في  
موسم معين . فإن ترك الناس النهر يفيض دون تدخل ، فإنه يُغرق  
المزروعات والزارعين ويخرب ويدمر . وأما إذا وضعوا السدود أمام النهر  
وحفروا له قنوات التصريف الكافية ، كان النهر خيراً وبركة .

وقد نظم الإسلام نهر الدافع الجنسي ، فمنعه من الفيضان العشوائي  
المدّمر ، ووجّهه في قنوات خاصة ، بحيث يعمل على حفظ توازن  
المجتمع الجنسي والصحي ، فأكد نظام الأسرة الفطري الذي تتوازن فيه  
حقوق الرجل والمرأة وواجباتهما .

وقد حرّم الإسلام الزنى ، لأنه يؤدي إلى ضياع الأسرة - لبنة المجتمع الأولى - وإلى اختلال توازن المجتمع بضياع الأنساب وضياع مسؤولية الإنفاق على الأبناء للجهل بأبيهم الحقيقية .

وهاهي عواقب الزنى الخطيرة تحلّ بالدول والمجتمعات المعاصرة ، التي أخلت بالتوازن الجنسي في جماعاتها ، وأطلقت العنان لشهواتها الجامحة ، حتى إن بعض الدول قد أخذ عددها يتناقص وأصبحت تحشى انقراض سكانها بعد فترة زمنية معينة . وقد خصّصت كثير من الدول الأوروبية - وبخاصة الاشتراكية منها - جوائز وامتيازات تشجيعية للأسر التي تفوق غيرها في إنجاب الأطفال ، وذلك بعد أن لمست تناقص الإنجاب في مجتمعاتها المتحللة من روابط الزواج الشرعي .

كما أن الأمراض المستعصية القاتلة قد أخذت تنتشر بين المنحرفين جنسياً في أمريكا وأوربا ، مثل مرض الإيدز ، الذي ظهر حديثاً ، وقد أشارت سورة العنكبوت إلى هذا الشذوذ الجنسي في قصة قوم لوط ، فقالت ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . أنكم لتأتون الرجال وتقعطون السبل ﴾ (٢٨ ، ٢٩) .

فتحريم السلوك الجنسي الخاطيء هو الملائم للمجتمع لأنه يحفظ استمراره وصحته واستقراره .

ج - شرب الخمر ولعب الميسر : لقد أشارت سورة البقرة إلى الإثم

العظيم في شرب الخمر ولعب الميسر، فقالت ﴿يسألونك عن الخمر والميسر، قلّ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس، وإثمُهُما أكبرٌ من نفعهما﴾ (٢١٩)، فهما يورثان العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ويخلان بتوازنه النفسي والصحي، فالخمر تصيب شاربها بتشمع الكبد وتنهك الجسم وتضعف مناعته.

فتحريم الخمر والقمار يلائم كل مجتمع لأنه يمنع تفككه الاجتماعي وانهياره الصحي .

د - قتل النفس : حرّم الإسلام قتل النفس تحريماً قاطعاً وجعل لمرتكبه العذاب الشديد يوم القيامة ، وجعل جزاءه في الدنيا القصاص ، أي مجازاة القاتل بالقتل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى ﴾ ( البقرة : ١٧٨ ) .

غير أن الشرع الشريف الرحيم ألح إلى التسامح فقال ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ( البقرة : ١٧٨ )

ثم بين أن القصاص يحفظ توازن المجتمع وأمنه وحياته لما فيه من ردع فقال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ( البقرة : ١٧٩ ) .

فتحريم القتل وتنفيذ القصاص يلائمان المجتمع والأفراد لأنها يؤديان إلى العدل والاستقرار .

## التلاؤم والتوازن في الوسطية

لقد قالوا قديماً إن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين . فالشجاعة فضيلة تقع في الوسط بين التهور والجبن ، والكرم فضيلة تقع بين رذيلتي البخل والإسراف . قال تعالى يمدح التوسط في الإنفاق ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ ( الفرقان : ٦٧ ) ، وقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ ( البقرة : ١٤٣ ) .

فالأمة الإسلامية تمتاز بالتوسط والاعتدال في كل أمورها فلا تغلو ولا تقصر ، بل تبقى متوازنة . وهذا التوسط يلائم الإنسان ويوافق مقتضيات الفطرة والحكمة .

### التوسط في قضية المسيح :

من المعلوم أن قوما قد أفرطوا في تعظيم المسيح عليه السلام - وهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كسائر الناس - فقالوا إنه ابن الله : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كلُّ له قانتون ﴾ ( البقرة : ١١٦ ) .

وأما اليهود فقد اعتبروا عيسى دجالاً كاذباً .

وجاء الإسلام وسطاً في قضية المسيح بريئاً من غلو هؤلاء وتقصير أولئك ، فنفى أن يكون المسيح ولداً لله ، كما سبق ، وأكد أنه بشر ،



وأثنى عليه الثناء الذي يليق به فقال ﴿ وَجِيهًا فِي الدِّينِ وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ( آل عمران : ٤٥ ) ، وأكد أنه رسول من عند الله خلافاً لزعم اليهود ، وهو موقف يلائم الحق وينطبق عليه .

### التوسّط بين المادية والروحية :

يتركب الإنسان من جسم مادي وروح ، ولكل منهما وظيفة خلقها الله لها ، ولا يسعد إنسان إلّا إذا حقق حكمة الله في كل من الجسد والروح .

وقد زعم بعض الناس أن الإنسان يجب أن ينصرف بجميع قواه إلى الناحية الروحية من كيانه وحياته ، وأن ذلك يتطلب منه أن يهمل جميع الشهوات المادية إهمالاً تاماً ، فلا يتزوج أبداً ولا يأكل إلا أخشن الطعام وأقله ، وهكذا .

وأما اليهود فإنهم لا ينظرون إلى الحياة إلا النظرة المادية المحضّة ، فهم يرون أن ( المال ) وحده هو مقياس عظمة الإنسان ورُقيّه . ومما يؤكد ذلك أنهم اعترضوا على نبي لهم حين عيّن لهم طالوت ملكاً عليهم زاعمين أنه لا يستحق الملك لأنه قليل المال : ﴿ قالوا : أتى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال ﴾ ( البقرة : ٢٤٧ ) .

وأما الإسلام فقد جاء بالوسطية التي تلائم فطرة الإنسان الثنائية ، الجسدية والروحية ، فاعتنى بهما معاً ، وذلك كما في الحديث الشريف الشهير الذي يمنع الرهبانية في الإسلام ويؤكد أن لكل من نفس الإنسان وجسده حقاً عليه يجب حفظه .

## يسر الإسلام يلائم الإنسان :

إن في الإسلام - بالإضافة إلى الوسطية - (يسراً) يلائم الإنسان لأنه ينقذه من الحرج الذي قد يتعرض له في أحوال طارئة كالمرض والسفر والفقر . فالعبادات الإسلامية متعددة الأشكال ، بحيث يستطيع المسلم أن يأخذ من هذه الأشكال ما يلائم حالته . فالمسلم صحيح الجسم والأمن من العدو يجب أن يُصلي قائماً متجهاً نحو الكعبة ، طبقاً للآية : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ . أما المريض الذي لا يستطيع القيام فله أن يصلي قاعداً أو على جنبه ، وإن كان المسلم خائفاً من العدو في إحدى المعارك فله أن يصلي راكباً على دابته : قال تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا ﴾ ( البقرة : ٢٣٩ ) ، وذلك دون التقيد باستقبال القبلة .

كما أبيح للمريض والمسافر أن يُفطرا في رمضان ، لأن الإفطار ملائم لهما أكثر من الصيام : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ( البقرة : ١٨٥ ) .

وكذلك الحج ، فإنه لا يجب إلا على المستطيع للقيام به : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ ( آل عمران : ٩٧ ) .

## الباب الرابع

التلاؤم الذاتي الاختياري

الفصل الأول - تركيب (الألم) وخطورته

الفصل الثاني - علاقة (الألم) بالشهوات

الفصل الثالث - هل نطلب لأنفسنا (الألم)

الفصل الرابع - التركيب الثاني (الأمل) والتلاؤم بين

(الأمل) و(الألم)

## الباب الرابع التلاؤم الذاتي الاختياري

بحثت فيما سبق كلاً من التلاؤم في الكون ( وهو من صنع الله ويدلّ عليه تعالى ) ، والتلاؤم في الشريعة الإسلامية ( وهو أيضاً من تدبير الله وحكمته ) . وهذان النوعان من التلاؤم لا دخل للإنسان في إحداثهما .

وأبحث فيما يلي - إن شاء الله - النوع الثالث من التلاؤم ، وهو التلاؤم الواجب على الإنسان أن يحدثه في نفسه وفي مجتمعه بملء إرادته واختياره ، كما أن عليه تقع مسؤولية الوصول إليه وبه يُجازى في الدنيا والآخرة .

فمن لاءم بين نفسه وبين الظروف الكونية المحيطة به ، ولاءم بين نفسه وبين شريعة الله ، فإن الله يهيء له المنزل الملائم لرغباته في الآخرة .

وأتناول في هذا الباب - إن شاء الله - شرح هذا النوع من التلاؤم ، مسترشداً بتراكيب حروف ( ألف لام ميم ) الثمانية ، المبيّنة في الباب الأول ، وهي ( الألم - الأمل ) ، ( ملأ - لمأ ) ، ( ملأ - مال ) ، ( مال - لام ) .

## الفصل الأول

تركيب (الألم) وخطورته

إذا نظرنا إلى التركيب الأول من البدائل وهو (الألم) ، وجدنا له معنى خطيراً جداً . فلولا الألم لما بقيت على الأرض حياة إنسانية : تصوّر طفلاً صغيراً يشاهد ناراً مشتعلة لأول مرة ، فيعجبه لهبها الأحمر البهيج ، ويضع يده في لهبها ، فيشعر فوراً بالألم ، فيسارع إلى إبعاد يده عن النار . وتصور الآن أن هذا الطفل فاقد للإحساس بالألم ، فإنه حين يضع يده في لهب النار ، وتشتعل يده بلهب آخر جميل ، دون أن يشعر بأذى ألم ، فإن الطفل يحترق جميعه دون أن يشعر أو يشعر به أحد . وتصور أن إنساناً لا يشعر بألم الجوع . إنه لن يأكل طعاماً قط ، فيموت جوعاً وهو لا يشعر .

وتصور إنساناً يُصاب بجرح بليغ في ظهره ، دون أن يشعر بألم الجرح ، فإنّ دمه يستمر في النزف حتى يموت وهو لا يشعر . وهكذا يتضح لنا أن (الألم) هو الذي يحفظ حياة الإنسان . إن الألم هو كلمة مباشرة من الله تعالى يوجهها إلى كل حي ، يأمره بها

أن يتعد عما يهدّد حياته .

إن الألم وحي إلهي مباشر يفهمه كل حي فوراً وبلا تردد ويلبّيه دون تأخير . . !

إن الألم دليل على الله ، لأنه يحرك الإنسان وغيره نحو هدف معقول شديد الوضوح - هو حفظ حياته .

ألم الجوع يحفظ الحياة من الموت جوعاً . . .

وألم النار يحفظ الحياة من الموت حرقاً . . .

وألم الجرح يحفظ الحياة من الموت نزفاً . . .

وألم الكبت الجنسي يؤدي إلى حفظ الحياة ، حياة النوع البشري ، من الانقراض .

إنها شبكة من الألام نُسجت نسيجاً دقيقاً لتؤدي هدفاً واحداً - حفظ الحياة .

إنها كلمة الله لا ريب فيها . . .

**الألم والتحذير من الموت :**

رأينا أن الألم يدعو الإنسان لحفظ حياته ويحذره من الموت ، وهذا أمر فطري وقد بينت سور ( الم ) أن الإنسان يحذر الموت ويتمسك بالحياة .  
فمن ذلك :

أ - ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذرَ الموت ﴾  
(البقرة: ١٩) .

ب - ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذرَ الموت ﴾  
(البقرة: ٢٤٣) .

ج - ﴿ قل إن كانت لكم الدارُ الآخرة عند الله خالصةً من دون  
الناسِ فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم  
والله عليهم بالظالمين . ولتجدنهم أحرصَ الناسِ على حياة . ومن الذين  
أشركوا يودّ أحدهم لو يُعمرَ ألف سنةٍ ﴾ (البقرة: ٩٤ - ٩٦) .

د - ﴿ كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرهُ لكم ﴾ (البقرة: ٢١٦) .

هـ - ﴿ فإذا ركبوا في الفُلِّكِ دَعَوْا اللهَ مخلصينَ له الدين ، فلما نجاهم  
إلى البر إذا هم يُشركون ﴾ (العنكبوت: ٦٥) .

و - ﴿ وإذا غشيهم موجٌ كالظللٍ دَعَوْا اللهَ مخلصينَ له الدين ﴾  
(لقمان: ٣٢) .

فالآيتان (أ ، ب) تبينان بصراحة أن الناس يحذرون الموت .  
والآية (ج) تبيّن أن الناس يحرصون على الحياة ، وإن كان ذلك  
بدرجات متفاوتة . والآية (د) تبيّن أن الناس يكرهون القتال لأنه  
يهددهم بالموت . والآيتان (هـ ، و) تبينان أن الناس حين يقعون في  
خطر الموت غرقاً بسبب الأعاصير البحرية ، فإنهم يتضرعون إلى الله وحده  
أن ينجيهم .

## أنواع الألم :

يمكن تقسيم الألم إلى نوعين رئيسيين هما : ( الألم الحسي ) و ( الألم النفسي ) .

فالألم الحسي كالم الجوع وألم الجراح وآلام الأمراض المختلفة .

والألم النفسي كالخوف والرعب والحسرة والهَمّ والغم والحزن والذل واليأس . وقد عرضت سور ( الم ) كثيراً من هذه الآلام الحسية والنفسية ، فمن ذلك : ﴿ ولنبلونكم بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوعِ ونقصِ مَنْ الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبشرِ الصابرينِ ﴾ ( البقرة : ١٥٥ ) ، ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُوْتِي المَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ المَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتَعَزُّ من تَشَاءُ وتُذَلُّ من تَشَاءُ ﴾ ( آل عمران : ٢٦ ) ، ﴿ لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ ﴾ ( البقرة ١١٤ ) ، ﴿ والذين كَفَرُوا بِآياتِ الله ولقائه أولئك يَئِسُوا من رحمتي ﴾ ( العنكبوت : ٢٣ ) ، ﴿ فأثابكُم غمًا بغمٍ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ ( آل عمران : ١٥٣ ) ﴿ ليَجْعَلَ اللهُ ذلك حَسْرَةً في قلوبِهِم ﴾ ( آل عمران : ١٥٦ ) .

## مقاصد الله من الألم :

سبق أن بينت أحد مقاصد الله تعالى من الآلام التي يصيب بها الإنسان ، وهو التحذير من الموت . غير أن حكمة الله اقتضت أن يكون للألم الحسي أو المعنوي أهداف أخرى منها :



أ- ألم الإنذار بالوقوع في مخالفة المنهج الإلهي . فعندما يقع الإنسان في ذنب يعاقبه الله على هذا الذنب لإشعاره بخطئه لعله يرجع عنه ، وقد يصيب به المؤمن أو الكافر .

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ( السجدة : ٢١ ) . والمقصود هنا أن الله يصيب الكافرين في الدنيا ببعض العذاب لعله يكون عبرة لهم فيرجعوا عن ضلالتهم قبل أن يصيبهم العذاب الأكبر يوم القيامة .

ومنه قوله تعالى في حق المؤمنين في معركة أحد: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ . . . فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٢ - ١٥٣) . وتبين الآية أن الله أصاب المؤمنين بالغم - وهو الحزن الشديد - لأنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا أمر الرسول .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ( العنكبوت : ٦٥ ) . فالله تعالى يخيف المشركين - والخوف ألم نفسي - بإثارة الريح عليهم في البحر ، بقصد إرجاعهم عن شركهم .

ومنه أيضاً ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ( الروم : ٤١ ) . ومن ذلك ألم القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ

لعلكم تتقون ﴿ (البقرة: ١٧٩) فمعاقبة القاتل أو السارق تردع أفراد المجتمع عن ارتكاب هذه الجرائم .

ب - ألم العقوبة في الدنيا : وهو العذاب الذي يصيب به الله المسيء انتقاماً منه ، بعد أن يعلم الله أنه لن يرتدع عن ضلاله . ولا يُصيب به إلا الكافر . ومن ذلك :

١ - إهلاك بني إسرائيل انتقاماً منهم لعصيانهم : ﴿ فبدّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذي قيل لهم ، فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسُقون ﴾ ( البقرة : ٥٩ )

٢ - أمره تعالى بني إسرائيل بقتل بعضهم بعضاً بعد أن عبدوا العجل : ﴿ إذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ ( البقرة : ٥٤ )

٣ - إصابة بني إسرائيل بالذل والمسكنة لكفرهم : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيينَ بغيرِ الحقِّ ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ( البقرة : ٦١ ) .

٤ - مسخ بني إسرائيل قردة وخنازير لاعتدائهم في السبت ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبتِ فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ ( البقرة : ٦٥ ) وكان هذا العذاب نفسه موعظةً وعبرة للمتقين الذين لم يقترفوا ذنباً : ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً

للمتقين ﴿ ( البقرة : ٦٦ ) .

٥ - جازى الله الذين يعتدون على المساجد بالخزي : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين . لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ ( البقرة : ١١٤ )

٦ - أغرق الله فرعون وجنده لتكذيبهم برسالة موسى ﴿ وإذ فرّقنا بكم البحرَ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعونَ وأنتم تنظرون ﴾ ( البقرة : ٥٠ ) .

٧ - أغرق الله قوم نوح بالطوفان لكفرهم : ﴿ فأخذهمُ الله بالطوفانِ وهم ظالمون ﴾ ( العنكبوت : ١٤ ) .

٨ - انتقام الله من قوم لوط وشعيب وعاد وثمود وفرعون وهامان ﴿ فكلاً أخذنا بِذنبِهِ فمَنهم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمَنهم مَنْ أَخَذْتُهُ الصَّيْحَةَ وَمَنهم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمَنهم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ( العنكبوت : ٤٠ ) .

٩ - أذاق الله الكافرين ألم الحسرة بموت أهلهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ( آل عمران : ١٥٦ )

ج - ألم العقوبة في الآخرة : وهو أخطر الآلام لأنه أدامها وأشدّها . وقد تكرر ذكره في سور (الم) وغيرها . فمن ذلك :

١ - ﴿فَاتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾  
(البقرة: ٢٤).

٢ - ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران :  
١٩٧).

٣ - ﴿نَمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَظَرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لقمان :  
٢٤).

٤ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا  
أُعِيدُوا فِيهَا﴾ (السجدة : ٢٠).

#### د - ألم الابتلاء :

إذا كانت لديك كمية من القمح تحوي بعض الشوائب ( التي  
تصغرها حجماً ) مخلوطة معها ، فكيف تفصل القمح النقي عن  
الشوائب ؟

إنك تستعمل غربالاً أو مصفاة ، تضع فيها الخليط وتهزها ، فتسقط  
الشوائب من ثقب المصفاة ، ويبقى القمح نظيفاً وحده .

تلك عملية تحليلية تركيبية تصنيفية . فهي تحليلية لأنك تفصل بها  
القمح عن الشوائب ، والفصل بين شيئين هو تحليل .

وهي تركيبية لأنك تجمع القمح في زمرة واحدة ، والجمع عملية  
تركيبية .

وهي تصنيفية ، ميّزت صنفى القمح والشوائب بعضهما عن بعض في زمرتين مستقلتين .

إنها عملية تلاؤمية لأنك تحصل بها على ما يلائمك من القمح النقي .  
والألم يشبه المصفاة أو الغربال . فقد يكون المجتمع خليطاً من المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يبتغون الكفر ويظهرون الإيمان ، فلا يمكن معرفة المؤمن الصادق من المنافق لأن مظهرهما واحد ، فيرسل الله على المجتمع ألماً أو عذاباً أو فتنة أو هزيمة ليظهر المؤمن الصادق من المنافق ، ويميّزهما في مجموعتين مختلفتين .

وقد حدث ذلك في معركة أحد ، التي انتهت بمقتل عدد كبير من المسلمين وجرح عدد منهم . وعند حدوث هذه المصيبة أظهر المنافقون حقيقة أنفسهم وأعلنوا خبايا قلوبهم ذات الميول الجاهلية ، التي لا تؤمن بأن الموت أمر مُقدَّر على الإنسان بمشيئة الله ، وأعلنوا أنهم لا يثقون بأن الله حامي المؤمنين وراعيهم ، وأنه ليس للمسلمين شيء من الأمر والقوة . قال تعالى فيهم : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ( آل عمران : ١٦٨ ) . وقال : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ : إِنْ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ . يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ : يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ

الأمر شيء ما قُتِلنا هاهنا . قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتِب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليمٌ بذات الصدور ﴿ ( آل عمران : ١٥٤ )

وقد صرحت الآيات الكريمة بأن هدف هذا الابتلاء هو تصنيف الناس إلى مؤمنين وكافرين ، بل وتصنيف المؤمنين إلى مجاهدين وصابرين وشهداء : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ( آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢ ) ﴿ ما كان الله ليدَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ( آل عمران : ١٧٩ ) .

وقد ورد هذا المقصد التصفي من عذاب الابتلاء أو الفتنة في سورة العنكبوت في الآيات : ﴿ الم . أَحَسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ( ١ - ٣ ) ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ! ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ( العنكبوت : ١٠ ، ١١ ) .

وهناك مقصد آخر من مقاصد الابتلاء ، وهو التمحيص ، أي تطهير

قلوب المؤمنين مما قد يكون فيها من شوائب ، كما تطهر النار المعادن من شوائبها : وقد ذكر هذا التمهيد في سورة آل عمران في الآيتين ( ١٤١ ) ، ( ١٥٤ ) الواردتين أعلاه .

ومن مقاصد الابتلاء أيضاً إتمام ظلام قلوب المشركين وهو ( المحق ) الوارد في الآية ( ١٤١ ) . فعندما هُزم المؤمنون في معركة أحد ازداد غرور المشركين بأنفسهم ، وظنوا أن دينهم هو الحق ، وأن انتصارهم على المسلمين هو انتصار لأهتهم وشركهم ، مما جعلهم يتمسكون بباطلهم . وقد بين الله أنه قد ( يُملي ) للكافرين ، أي يمهلهم ويُرخي لهم الحبل ليزدادوا إثماً وكفراً : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم . إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهين ﴾ ( آل عمران : ١٧٨ ) .

**الابتلاء بالخوف :** تتناول سور ( الم ) الابتلاء بالخوف بالتفصيل . والخوف نوعان : نوع فاضل رحمانى ، وهو الخوف من الله تعالى ، ونوع شيطاني ، وهو الخوف من الناس ، وهو خوف يثيره الشيطان في قلوب الكفار وضعاف الإيمان .

وقد ذكرت سور ( الم ) هذين النوعين من الخوف معاً في آية واحدة فقالت : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ( آل عمران : ١٧٥ ) . وقالت : ﴿ فلا تخشَوْهم

وَأَخْشَوْنِي ﴿ ( البقرة : ١٥٠ ) .

فعلى المؤمن ألا يخافَ الناس ولا الشيطان ، وأن يخاف الله وحده لأنه هو وحده الذي يملك أن ينفع الناس وأن يضرهم . وكما أن وظيفة الأُم الحسي هي حماية حياة الجسد بتحذير الإنسان من خطر قتال ، فإن وظيفة الخوف ( وهو أُل نفسي معنوي ) هي حماية حياة القلب والروح ، وذلك بتحذير النفس من خطر قتال للروح ، وهو الانحراف عن منهج الله وصراطه المستقيم . فخوف الله يعني الخوف من الوقوع في المعاصي . وقد يتلى الله المؤمنين بالخوف من الأعداء . قال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُونَكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ ( البقرة : ١٥٥ ) . فإذا كانوا صادقي الإيمان فإنهم ينجحون في هذا الامتحان .

وقد أثنى الله على المؤمنين الذين حاول المنافقون تخويفهم من حشود الأعداء ، لكنهم أخفقوا في محاولتهم : قال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ( آل عمران : ١٧٣ ) ، ونجح المؤمنون في قلع الخوف من أنفسهم وتثبيت التوكل على الله في قلوبهم ، والثقة في نصره تعالى لهم .

\* \* \* \*



## الفصل الثاني

علاقة (الألم) بالشهوات

خلق الله الإنسان ، وخلق معه ( الشهوات ) لحكمة عظيمة وإبداع مُتقن : قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمَسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ( آل عمران : ١٤ ) .

فبالشهوات يسير الله الخلق ويحفزهم إلى اتباع سلوك معين ، تقوم عليه حياتهم كلها أفراداً ونوعاً . إنها شبكة محكمة من سلاسل وحبائل نفسية غير مرئية ، لكنها محسوسة تملأ قلوبنا وحياتنا ، بل هي مادة حياتنا الدنيا ومعدنها .

وقد ربط الله تنفيذ هذه الشهوات بالألم أولاً ، ثم باللذة ثانياً ، فالشهوات عموماً ، إن لم تجد طريقها المرسوم لها ، أحسَّ الإنسان بالألم والضيق والخرج . ثم عندما تسلك طريقها المقدر لها ، يشعر صاحبها باللذة والفرح والسرور . ولننظر الآن كيف عاجلت سور ( الم ) الشهوات والآلام الناتجة عن كتبها ، ذاكرين أن الشهوات الحلال والآلام المقترنة بها

(تلائم) الإنسان تمام التلاؤم لأنها خطة حكيمة هادفة إلى حفظ حياة الإنسان ومصلحته .

١ - شهوة النساء :

إن شهوة الرجل للمرأة - إن لم تجد طريقها المرسوم لها - أحسّ الرجل بألم الكبت الجنسي . وهو نوعان :

(١) - ألم جسمي بيولوجي معروف أشارت إليه سور (الم في الآيات التالية :

أ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ (البقرة : ١٨٣) .  
فإن من شروط الصيام الامتناع عن إتيان النساء نهاراً ، فهو كبت جنسي مؤقت ، وهو يشتد حين الاعتكاف في المساجد في العشر الأواخر من رمضان . قال تعالى ( ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ .

ب - ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ﴾ (البقرة : ١٩٧) ، والرفث هو قرب النساء وهو محرم على الحاج .

ج - ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ﴾ (البقرة : ٢٢١) ، فلا يجوز للمؤمن أن يتزوج مشركة ، وعليه أن يكبت ميوله الجنسية ، ولو أعجبته تلك المشركة وأعجبها .

د - ﴿ ويسألونك عن المحيض . قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ (البقرة : ٢٢٢) . فالمؤمن

مطالب بكتب ميوله الجنسية حين محيض زوجته وبتحمل ألم حرمان نفسه منها .

## ٢ - شهوة البنين :

إن شهوة الإنسان إلى البنين تجعله يتألم إن حُرِمَ منهم ، وتشير إلى ذلك الآيات التالية :

أ - ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ( البقرة : ٤٩ ) . فحرمان بني اسرائيل من البنين كان بلاء عظيماً لهم وعذاباً نفسياً شديداً .

ب - رغبة النبي زكريا ﷺ في أن يرزقه الله ولداً استحوذت عليه حتى بعد أن أصبح شيخاً فانياً وبعد أن أصبحت امرأته عاقراً : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ( آل عمران : ٣٨ ) .

## ٣ - شهوة تملك الأموال :

إن شهوة الإنسان إلى تملك الأموال من ذهب وفضة وغيرها ، تجعله يشقى في كسبها وجمعها : ﴿ وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ . فإذا حُرِمَ من المال شَعَرَ بِألم ذلك الحرمان ، أي بالفقر . وتشير سور ( الم ) إلى ألم الفقر هذا فيما يلي من الآيات :

أ - ﴿ للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً في الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفِفِ ﴾ (البقرة : ٢٧٣) .  
 وَتَحْضُ الآية على التَّخْفِيفِ من ألم فقر هؤلاء الصالحين .  
 ب - تحض سورة البقرة على تخفيف الألم النفسي الذي يشعر به المعسر ، الذي حان موعد سداد دينه فعجز عن سداده لقله ماله : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ ( ٢٨٠ ) فالآية تدعو إلى تخفيف آلامه بتأجيل المطالبة بدينه أو بإعفائه منه بالمرّة ، وهو الأفضل .  
 ج - تلاحظ الآيات الكريمة ، حينما تحضّ الناس على التصدق على الفقراء أن للفقير كرامة لا يجوز جرحها بالمنّ والأذى والتحقير : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لا يُتَّبَعُونَ ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يمجنون ﴾ ( البقرة : ٢٦٢ ) .

د - إن المتصدق بقسم من ماله يقاوم شهوة التملك ، شهوة حيازة القناطر المقلّنة من الذهب والفضّة . ومقاومة هذه الشهوة تسبب له ألماً نفسياً يجب التعود عليه لأن فيه تطهيراً للنفس من سيطرة الشهوة ، ومن قاوم هذا الألم وتحمله نال مقام البرّ الذي ورد في الآية ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ( آل عمران : ٩٢ ) ، والآية ﴿ ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر . . . وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾ ( البقرة : ١٧٧ ) .

وقد كررت سور (الم) ذكر الزكاة التي تخفف آلام الفقراء ، كما في الآية ﴿ وما آتيتم من زكاةٍ تريدونَ وَجْهَ اللَّهِ فأولئك همُ المضعِفون ﴾ (الروم : ٣٩) .

هـ - حرّمت سور (الم) الرِّبَا بجميع أشكاله البسيطة والمضاعفة لأن فيه إرهاباً للمدين الفقير ، وذلك كما في الآية ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ (البقرة : ٢٧٨) والآية ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الرِّبَا أضعافاً مضاعفة ﴾ (آل عمران : ١٣٠) .

#### ٤ - شهوة القتال ، الخيل :

لقد ذكر الله (الخيل المسومة) في آية الشهوات ، من بين الشهوات التي زُيِّنَتْ للإنسان ، وهي إشارة إلى ميل الإنسان العميق إلى القتال والعدوان ، وهو ميل ظهر فيه منذ أهبط الله آدم بخطيئته إلى الأرض فقال : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ﴾ (البقرة : ٣٦) . فعداوة الناس بعضهم لبعض وحروبهم لا تنقطع .

وكلمة (الخيل) في الآية تدل على القتال بدليل قوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ ومن رباط الخيلِ تُرهبونَ بهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

والقتال يسبب آلاماً جسمية ونفسية عظيمة ، فيسبب الجراح : قال تعالى في هزيمة أحد : ﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثله ﴾ (آل

عمران : ١٤٠) ، كما يسبب الحزن والحسرة على فقد الأقارب والأصدقاء الذين يُقتلون في الحرب . وقد مرت آيات تفيد ذلك . هذا ، وإن على المؤمن أن يتلاءم مع آلام القتال لأنه ضرورة لا بدَّ منها مادام الأعداء هم الذين يبدأون المسلمين بالعدوان ، كما ثبت في جميع العصور . ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ ( البقرة : ٢١٦) . وتحمل آلام الجهاد يلائم المؤمن أعظم التلاؤم لأنه ينقله نقلةً واحدةً من الحياة الدنيا الفانية إلى حياة رغبة عند الله : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ (آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠) .

## ٥ - ألم الجوع والعطش : الأنعام والحِث :

ذكرت آية الشهوات ( الأنعام والحِث ) من بين الشهوات التي زُيّنت للناس . وإذا حُرِمَ الإنسان من الغذاء ، من لحوم الأنعام وألبانها ، ومن ثمرات الحِث ( النباتات ) ، فإنه يعاني ألم الجوع والعطش ، الذي ورد ذكره في الآية ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ ( البقرة : ١٥٥) .

ويحارب الاسلام ألم الجوع والعطش بكل الوسائل ، فيفرض الزكاة ، ويفرض الأضحيات في الحج ( الهدى ) لإطعام الفقراء ( البقرة : ١٩٦ ) ، ويبيح للجائع المضطر أن يأكل من المحرمات : الخنزير والميتة ( البقرة : ١٧٣) .

## جهاد النفس والشهوات والألم :

إن شهوات حب النساء والبنين والأموال والحروب والمآكل قد تغطي على الإنسان فتخرجه على توازنه الفطري ، فتستبد به أهواؤه فيقع في أسرها فلا يستطيع منها فكاكاً . لذلك كان من الضروري أن يجاهد الإنسان هذه الأهواء الطاغية ويعيدها إلى حدودها الطبيعية التي رسمها الله لها .

وجهاد النفس لا بدّ من أن ترافقه آلام وضيق وخرج وردّ الفعل الملائم لهذه الآلام هو ( الصبر ) . ومن أراد الانتصار على أعدائه في ميدان القتال فعليه أولاً أن ينتصر على نفسه وأهوائها قبل ذلك . وتقدم سورة آل عمران مثلاً حياً على ذلك في عرضها لمعركة أُحُد . فقبل بدء المعركة عين الرسول لفريقيّ من المؤمنين مواقع على سفح الجبل وأمرهم ألا يغادروها مهما كانت نتيجة المعركة التي تجري في السهل . ودارت المعركة وانتصر المسلمون الذين في السهل وهرب المشركون وتبعهم المسلمون ليأخذوا ما يستطيعون من الغنائم منهم ، فلما رأى الفريق المرابط على رأس الجبل ذلك ، طمعوا في الغنائم ، فهبطوا عن الجبل مسرعين ، ليجمعوا بعض الغنائم ، فانكشفت مؤخرة جيش المسلمين ، ولاحظ ذلك خالد بن الوليد ، قائد إحدى فرق المشركين حينئذ ، ففاجأ المسلمين من خلفهم فأوقع بهم الهزيمة بعد انتصارهم .

وقد بينت السورة أسباب الهزيمة ، وهي الفشل ( أي الجبن ) ،  
وعصيان أمر النبي ، وحب أموال الدنيا . تقول السورة : ﴿ ولقد  
صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعَدَّهُ إِذْ تُحْسِنُونَ بآذِنِهِ حَتَّى إِذَا فَسَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ  
وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ  
الْآخِرَةَ ﴾ ( آل عمران ١٥٣ ) .

وأما الفريق الآخر من المؤمنين ، المنتصر على أهواء نفسه ، والمشار  
إليه في الآية بالعبرة : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ فإنه حوّل هزيمة  
المسلمين الظاهرية إلى نصرٍ حقيقي أنقذ مصير الدين الإسلامي بأسره .

إن هذا الفريق المثخن بالجراح بعد الهزيمة ، دعاه الله ورسوله إلى جمع  
الصفوف مرة ثانية لاستئناف القتال واستجابوا ولم يجبنوا ولم يتخاذلوا :  
﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ  
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ( آل عمران : ١٧٢ ) .

وتجلى انتصارهم على أهواء أنفسهم حين حاول المنافقون تخويفهم  
قائلين : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ لكنهم ازدادوا إيماناً  
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وكانت النتيجة أن المشركين ، المنتصرين ظاهرياً ، هم الذين خافوا  
من تهيب المسلمين للقتال ، فتركوا ميدان المعركة منسحبين إلى مكة ،  
وبقي الإسلام قائماً بقيادة الرسول ، مع أن الفرصة كانت سانحة تماماً



للقضاء على الدين الناشئ قضاءً مبرماً .

وتضرب سورة البقرة مثلاً حياً آخر على أن الانتصار على أهواء النفس يجب أن يسبق الانتصار على الكفار ، وذلك في قصة الملك طالوت الذي لاحظ وجود فريق متخاذل في جيشه ، فأراد أن يخرج هذا الفريق من الجيش ، وعندما مرّوا بأحد الأنهار ، أمر جنوده ألا يشربوا من ماء النهر إلا بمقدار ما يسعه كفّ أحدهم ، فالذين رَووا أنفسهم كلّ الرّي من الماء ولم يصبروا على الماء الكثير ، فإنه أخرجهم من الجيش ، وسار مع الذين ضبطوا أنفسهم وانتصروا عليها ليقاتلوا الأعداء ، وعندما رأى هؤلاء كثرة عدد أعدائهم ، لم يخافوهم ، بل قالوا : ﴿ وكم مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

وكانت النتيجة الانتصار على الكفار .

ويلاحظ أن العبادات جميعاً تعين المؤمن على مجاهدة نفسه وأهوائها . فالصلاة ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ والصيام يعين على كسر شوكة الطعام والنساء ، والزكاة تعين على قمع دافع الشحّ ، والحج يعين على قمع الرفث والفسوق والجدال .

كما يلاحظ أنّ سور ( الم ) قد حثت على الصبر حين مجاهدة النفس وحين وقوع المصائب وحين القتال . وقد وردت في ذلك آيات عديدة جداً ، أكتفي بذكر هذه الآيات منها : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا

أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنا لله وإنّ إليه راجعون ﴿ (البقرة: ١٥٥ ، ١٥٦) ،  
﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ (البقرة : ٤٦) ، ﴿ أمّ حسيبتم أن  
تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ( آل  
عمران : ١٤٢ ) .

\* \* \* \*

## الفصل الثالث

هل نطلب لأنفسنا (الأم)

إذا كان الألم - كما قد اتضح سابقاً - تمحيصاً وتطهيراً للنفس وتصفيَةً لها ، أفلا نطلبه لأنفسنا ؟ ونجلب على أجسامنا وقلوبنا الآلام المختلفة ؟ إن هذا هو ما يفعله بعض الرهبان ، معتقدين أن جلب الألم الاختياري على النفس هو تطهير لها ، ينعش الروح ويرضي الله تعالى . لكن الإسلام يأبى ذلك ، ويرفضه رفضاً شديداً !!

نعم ، لقد بينت سور ( الم ) فضل الألم ، لكنها قصرت ذلك على الألم الذي يأتي إلى النفس بلا إرادة منها ولا اختيار ، على ألم المصائب التي تأتي بقضاء الله وقدره ، على ألم التعب الناجم عن القيام بالعبادات المفروضة ، كالم الجوع حين الصيام ، وألم الجراح التي يسببها قتال الأعداء .

فعلى المسلم أن يتجنب الآلام المصطنعة وأن لا يوقعها بنفسه أو بالآخرين . فقد قال تعالى ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ( البقرة : ١٩٥ ) ، وقال ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ( البقرة :

( ١٨٥ ) ، فالله لا يريدنا أن نلقي بأنفسنا في العذاب والهلاك والعسر ، وما العسر إلا الضيق ، وما الضيق إلا عذاب أو ألم .

وقال تعالى أيضاً ﴿ ولا تمهتوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ( آل عمران : ١٣٩ ) ففي هذه الآية نهي صريح للمؤمنين عن الاستسلام للمهانة والحزن الذي هو ألم نفسي .

وقد ورد في الحديث الشريف المتفق عليه أن ثلاثة رجال اجتمعوا « فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً . وقال الآخر : أنا أصوم النهار أبداً . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء النبي ﷺ إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (مشكاة المصابيح : ١٤٥) .

ففي هذا الحديث نهى الرسول ﷺ الناس عن إرهاق النفس وتعذيبها بالقيام المتواصل في صلاة الليل ، وعن تعذيب الجسم بالصوم المتواصل ، وبإيقاع ألم الكبت الجنسي الدائم بالنفس والجسم ، ويكفي الانسان القدر الذي فرضه الله عليه من الأعباء التي روعيت فيها الحكمة الإلهية : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ( البقرة : ٢٨٦ ) .

فهذا هو الموقف الصحيح الملائم للفترة ، المتوازن القائم على الاعتدال والوسطية واليسر .

منع الألم عن الآخرين :

إن من أوجب واجبات المؤمن أيضاً أن يمنع الألم عن الآخرين . فمن ذلك :

(١) - نهى الله المسلم نهياً متكرراً في الآيات ( ٢٦٢ - ٢٦٦ ) من سورة البقرة ، أن يمين على الفقير أو يؤذيه بجراح الكلام حينما يتصدق عليه .

(٢) - شجع الله الدائن على تخفيف الألم النفسي الواقع بالمدين وذلك بتأجيل مطالبته بالمدين حينما يمين أجله ، بل شجعه على إعفائه من الدين جميعه .

(٣) - قال الرسول الكريم ﷺ : « مَنْ فَرَجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (مشكاة المصابيح : ٤٩٥٨) .

(٤) نهى الله الرجل عن إمساك المرأة لمجرد إيدائها : ( وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً تعتدوا ) ( البقرة : ٢٣١ ) .

كما منع الإيذاء والضرار بين الزوجين : ( لا تضارن والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ) ( البقرة : ٢٣٣ ) .



## الفصل الرابع

التركيب الثاني (الأمل) والتلاؤم بين (الأمل) و(الأم)

لنأخذ الآن الترتيب الثاني للحروف ( ا ل م ) وهو ( ا م ل ) ،  
فنحصل على معنى ( الأمل ) . والأمل هو الرجاء والبُشرى بزوال ( الأمل )  
والكرب وبحلول الخير . وهو معنى كبير ، وشعور نفسي له أهميته الكبرى  
في الحياة . قال الشاعر : « ما أضيّق العيشَ لولا فسحةُ الأملِ » . فإن  
أحزان الحياة لا يوازنها ويخفف شدتها إلا الأمل .

ولولا الأمل لما صلحت الدنيا ولا الآخرة ، فصاحب الدنيا يقبل على  
دنياه مدفوعاً بالأمل في جني ثمار عمله ، وطالب الآخرة يقبل على عباداته  
آملاً أن يفوز بالجنة .

والأم والأمل ضروريان معاً لحياة القلب . فإذا خلا القلب من الخوف  
( وهو ألم نفسي ) رتع صاحبه في المحرمات والآثام دون رادع فهلك ،  
وإذا خلا القلب من الأمل أصابه اليأس فهلك ، لأنّ اليأس كفر : قال  
تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

لذلك وجب على الإنسان أن ( يلائم ) بين آلامه وآماله وأن يوازن بينهما بحكمة فلا يدع إحداهما تطفئ على الأخرى .

اقتران الأمل بالعمل : قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ ( البقرة : ٢١٨ ) .  
تفيد هذه الآية أن الأمل الذي تتضمنه كلمة « يرجون » مقترن مع العمل ، وهو الهجرة والجهاد في سبيل الله . فالذين يرجون رحمة الله وينبعث في نفوسهم الأمل في نصره ، إنما هم الذين عملوا ، فأمنوا وهاجروا وجاهدوا .

فالأمل بلا عمل ، خداع للنفس وكسل .

والعمل بلا أمل ، تعب وملل .

صفات الله الحسنى والأمل :

قسم العلماء صفات الله الحسنى إلى مجموعتين ( أولاهما ) : صفات الجلال ، أمثال : ( القهار ، الجبار ، ذو انتقام ، العزيز ) ( وثانيتها ) : صفات الجمال ، أمثال ( الكريم ، الرحيم ، الودود ، الرؤوف ، الغفور ) .

وصفات الجلال تبعث في النفس الرهبة والخوف ( وهي من أنواع الأمل ) . وأما صفات الجمال ، فتبعث في النفس الأمل في رحمة الله وكرمه وعفوه . وقد ذكرت سور ( الم ) كثيراً من صفات الله الجمالية . فمن ذلك



قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة : ١٤٣) ،  
﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران : ٨٩).

ومما يبعث الأمل في النفس أن الله تعالى قريب مجيب سميع عليم .  
قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا  
دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ( البقرة : ١٨٦ ) .  
ولهذه الآية وقع خاص عجيب في النفس يثير فيها أقصى درجات  
التفاؤل والبشرى . انني أشعر حين تلاوتها أن أبواب رحمة الله كلها مفتحة  
على مصراعيها ، وما عليّ إلا أن أخطو خطوة واحدة فأدخل رحمته  
الواسعة .

وقد أوردت سور ( الم ) استجابة الله لدعاء عباده في مواطن عديدة  
منها :

أ - استجابة الله لتوبة آدم بعد أن ارتكب معصية بالأكل من الشجرة  
وشعر بالندم ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ﴾ (البقرة : ٣٧).

ب - وسعت رحمة الله وحلمه بني إسرائيل فتاب عليهم حتى بعد أن  
ارتدوا إلى الشرك وعبدوا العجل ( البقرة : ٥٤ ) . وكذلك وسعهم الله  
بحلمه بعد أن طلبوا أن يروه تعالى جهرةً بأعينهم ، فأخذتهم الصاعقة ،  
ثم بعثهم بعد موتهم وأرسل عليهم الغمام يظلمهم وأرسل لهم المن

والسلوى (البقرة: ٥٧).

ج - استجاب الله لامرأة عمران حين دعته أن يتقبل منها مريم  
(وهي في بطنها) نذراً ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسنٍ وأنتها نباتاً حسناً ﴾  
(آل عمران: ٣٧).

د - استجاب تعالى دعاء زكريا أن يهبه غلاماً ، مع أنه كان هرمًا فانياً  
وكانت امرأته عاقراً ، فوهب له يحيى (آل عمران: ٣٩).

هـ - استجابته تعالى لدعاء المؤمنين المتفكرين في خلق السماوات  
والأرض : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر  
أو أنثى ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

و - استجاب الله لرسله فأنقذ نوحاً من قومه وأهلكهم بالطوفان ،  
وانقذ إبراهيم من النار ، وأنجى لوطاً وأهلك قومه ، وانجى موسى وقومه  
وأهلك فرعون وقارون وهامان . (سورة العنكبوت: ١٤ - ٤٠)

### الأمَل في يُسر تشريع الله :

إن مما يبعث الأمل في النفس ، رحمة الله بعباده ، إذ رفع عنهم الحرج  
والعسر في كل مناسبة . ﴿ يريدُ الله بكم اليسر ولا يُريد بكم العسر ﴾  
(البقرة: ١٨٥) . ومن أمثلة ذلك :

أ - أباح الله للمسلم أن يفطر في رمضان حين مرضه أو سفره  
(البقرة: ١٨٥)

ب - أباح للحاج المريض أن لا يحلق شعره ( البقرة : ١٩٦ ) .  
ج - أباح لأهل القتل أن يأخذوا الدية من القاتل بدلاً من الثأر منه  
بقتله ( البقرة : ١٧٨ )

د - أباح للمسلمين أن يصلوا مترجلين أو راكبين حين الخوف من  
الأعداء ( البقرة : ٢٣٩ )

هـ - أباح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر ( البقرة : ١٧٣ )

و - حرّم الربا للتخفيف عن المدين المعسر (البقرة: ٢٧٨)

ز - حث على إمهال المدين المعسر بل على إعفائه من الدين ( البقرة :

٢٨٠ )

ح - حرم المن والأذى حين التصدق على الفقير ( البقرة : ٢٦٢

- ٢٦٦ )

الأمّل والبُشرى :

إن سور ( الم ) تزخر بالبشائر الباعثة للأمل . فمن ذلك :

أ - أنزل الله القرآن هدى وبشرى : ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله

مُصَدِّقًا لما بين يديه وهدىً وبُشرى للمؤمنين ﴾ ( البقرة : ٩٧ )

ب - ارسل الله الرسل جميعاً مبشرين ومنذرين : ( البقرة : ٢٥ ،

١١٩ )

ج - يرسل الله الرياح لتبشر الناس بالمطر والخير والرزق : ( الروم :

٤٦ )

د - يرسل الله الملائكة لتبشّر المؤمنين بالنصر كما فعل في معركة بدر ،  
( آل عمران : ١٢٣ )

هـ - يبشّر الله الصابرين ﴿ ويبشّر الصابرين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ (البقرة: ١٥٥، ١٥٦).

و - وبشّر الله الشهداء بالحياة والرزق بعد موتهم ( آل عمران :  
١٦٩ )

### الأمل في حب الله للمؤمن :

وأي أمل أعظم من الأمل المنبعث من معرفتك أن الله تعالى  
يمكن أن يحبك ، نعم يحبك . وشروط هذا الحب هو طاعة الله  
واتباع رسوله الكريم : ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني  
يُحِبِّكُمْ الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ( آل عمران : ٣١ ) .

وقد جعل حبه للصابرين ( آل عمران : ١٤٦ ) والمحسنين  
( آل عمران : ١٤٨ ) ، والتوابين والمتطهرين ( البقرة : ٢٢٢ )  
والمتقين ( آل عمران : ٧٦ ) ، والمتوكلين ( آل عمران :  
١٥٩ )

### الأمل في وعد الله :

إن النفس المؤمنة السوية تكون دائماً مفعمة بالأمل في رحمة الله  
وكرمه ، فإن وسوس الشيطان لها ، مخوّفاً إياها من المستقبل ، من فقر أو

ضيق يقع فيه ، فإنها تتجه إلى الله بقلبها ، فتجد عنده الوعد بالفضل والكرم والخير . قال تعالى : ﴿ الشيطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . ﴾ ( البقرة : ٢٦٨ ) .

## الأمل والألم معاً :

عند حلول المصائب والآلام بالمؤمن ، فعليه أن لا ييأس ، بل عليه أن يأمل في رحمة الله ومعونته ، فالأمل هو الدواء الذي يوازن الألم ويلائمه ، وقد قرنت سور ( ألم ) بين الألم والأمل في عدد من آياتها . فمن ذلك ما يلي :

١ - ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله أولئك يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ ( البقرة : ٢١٨ ) . فهذه الآية جمعت بين آلام الهجرة والجهاد وبين الأمل في رحمة الله .

٢ - ﴿ أم حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟! أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ( البقرة : ٢١٤ ) . فهذه الآية جمعت بين ( ألم ) البأساء والضراء و ( الأمل ) في نصر الله القريب .

٣ - ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ،

فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿ ( آل عمران : ١٧٣ ) .  
فهذه الآية قد جمعت بين ألم الخوف ( الخشية ) من الأعداء وبين الأمل في  
التوكل على الله .

٤ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾  
( السجدة : ١٦ ) فهذه الآية جمعت بين الخوف والطمع أي بين الأمل  
والأمل .

٥ - ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ( العنكبوت : ٥٩ ) .  
فهذه الآية جمعت بين الصبر على ألم الجهاد في سبيل الله وبين التوكل على  
الله الذي يتضمّن الثقة فيه تعالى والأمل في رحمته .

٦ - ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرضِ ، وهم من بعد غلبهم  
سَيَغْلِبُونَ ﴾ وقد جمعت هذه الآية بين ألم الهزيمة التي أصيبت بها الروم ،  
وبين الأمل في فرحة انتصارهم فيما بعد .

\* \* \* \*

## الباب الخامس

الفصل الأول - التركيبان (ملاً) و(لماً) والتلاؤم بينهما  
الفصل الثاني - الملاء والتفريغ في أجلّ معانيه : ملء  
القلب بالتقوى والشكر  
الفصل الثالث - الملاء والتفريغ في أركان الإسلام وفي  
الآخرة





## الفصل الأول

التركيبان (ملاً) و(لماً) والتلاؤم بينهما

لنأخذ الآن الحروف الأصلية ( الف لام ميم ) بالشكلين ( م ل ا )  
و( ل م ا ) ، فنحصل على الكلمتين :

١ - (ملاً) : وهي إما أن تكون اسماً (ملاً) بمعنى القوم أو  
الجماعة . وإما أن تكون فعلاً ماضياً (ملاً) ومعناها مشهور ، وهو  
التعبئة ، ومصدرها (الملء) ومضارعها (يملاً) . ولنأخذ الآن هذا  
الشكل (ملاً) ، ونرجىء الشكل الآخر (الملاً) إلى فصل قادم إن  
شاء الله .

٢ - (لماً) : وهي كلمة نادرة الاستعمال . ومن معانيها ما أورده  
معجم لسان العرب إذ قال : « لماً الشيء - والمضارع يلمؤه - بمعنى أخذه  
بأجمعه » و « كان بالأرض مرعى أو زرع فهاجت به دوابّ فألمأته ، أي  
تركته صعيداً ليس به شيء ، وهاجت به الرياح فألمأته ، أي تركته  
صعيداً » أي خالياً .

وهكذا نجد أن من معاني (ملاً) أزال وفرغ وأخلى ، فلمأت الريح الحقل ، تعني (فرغته مما فيه من الزرع) .

أي أن التركيبين (ملاً ولمأ) متضادان في المعنى ، فهما بمعنى (عباً وفرغ) .

وهذان المعنيان مهمّان جداً ، فالحياة كلها ملء وتفريغ ، بل الحياة (تلاؤم) وتوازن بين الملء والتفريغ ، وإذا اختل هذا التوازن اختلت الحياة كلها وحلّ الشقاء .

وتتضح لنا خطورة عمليتي الملء والتفريغ إذا تأملناهما على ضوء آية الشهوات الخطيرة وهي : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (آل عمران : ١٤)

### ١ - الملء والتفريغ في شهوة النساء :

إن شهوة الرجل للمرأة تؤدي إلى تزوجه بها ، مما يؤدي إلى (ملء) رحمها بالجنين بعد أن يكون فارغاً . ثم تلد المرأة الطفل ، فيفرغ بطنها بعد أن كان ممتلئاً .

### ب - الملء والتفريغ في البنين :

إن شهوة الإنسان للبنين تجعله (يملاً) بيته بهم بعد أن كان فارغاً منهم ، أي يصبح البيت عامراً بهم لفترة ما . لكن هذا البيت نفسه لا بُد

يفرغ منهم يوماً ما ، وذلك إما بمغادرتهم بيت أبيهم إلى بيت آخر يؤسسون فيه أسرة أخرى ، يملأون بها هذا البيت الجديد ، وإما بالسفر إلى بلد آخر ، وإما بالموت .

### ج - الملاء والتفريغ في الذهب والفضة :

إن شهوة الإنسان للمال تجعله يسعى لأن ( يملأ ) خزائنه وجيوبه الفارغة بالأموال الوفيرة ، التي أطلقت عليها الآية « القناطير المقنطرة » . لكن الإنسان لن يستفيد من هذه الأموال بمجرد ملء خزائنه بها ، فلا بد له - حتى يتمتع بها - من إنفاقها على حوائجه ، فيفرغ خزائنه وجيوبه منها جزئياً أو كلياً . ويبقى طيلة حياته يملأ خزائنه ويفرغها بالكسب والإنفاق .

### د - الملاء والتفريغ في الخيل المسومة :

إن ( الخيل المسومة ) - كما مر سابقاً - ترمز إلى الحرب . والحرب تنطوي على الملاء والتفريغ . فالدولة تملأ ثكناتها بالجنود ومستودعاتها بالأسلحة ، وهذا في وقت السلم ، أما في وقت الحرب فيخرج الجنود من ثكناتهم ، فتصبح هذه الثكنات فارغة منهم . وعند حدوث الحرب ينتصر أحد الفريقين ، فيحتل بلاد الفريق الآخر المنهزم ، فتمتلئ البلاد المحتلة بالجيش المحتل بينما تمتلئ القبور بالجنود القتلى من الطرفين ، وتمتلئ المستشفيات بالجرحي .

## هـ - الملاء والتفريغ في الأنعام والحرث :

إن الأنعام كالبقرة والغنم تفيد الانسان في تغذيته بلحومها وألبانها ، وفي صنع ملابسه من أصوافها وأوبارها ، وصنع أحذيته من جلودها .

أما اللحوم والألبان فلها مصانع إلهية تصنعها هي أرحام الإناث وضروعها التي تمتلىء بالأجنة والألبان ثم تفرغ بالولادة والحلب .

وعندما يأكل الإنسان اللحوم ويشرب الألبان ، فإنه يملأ بطنه بها ،

ولا يلبث أن يفرغ من الطعام بخروج الفضلات من جسمه ، وباحتراق

الغذاء المهضوم بوساطة الاوكسجين المأخوذ بالتنفس ، مولدًا الطاقة

الحرارية والحركية للإنسان . والتنفس نفسه هو شهيق وزفير ، فالشهيق

ملء للرئتين بالهواء الحاوي على الاوكسجين ، والزفير تفريغ للهواء

الفاسد .

وأما جلود الأنعام ، فيستعملها الإنسان للأحذية يملؤها برجليه حين

يلبسها ، ويفرغها من رجليه حين يخلعها . كذلك يملأ الانسان بجسمه

الملابس التي يصنعها من أصواف الحيوانات حين يلبسها ، ويفرغها من

جسمه حين يخلعها .

والحرث يعني النباتات التي يستفيد منها الإنسان في غذائه وملابسه

التي يقال فيها من حيث الملاء والتفريغ ما قيل في مثيلاتها المأخوذة من

الحيوانات .

وهكذا اتضح على أساس آية الشهوات كيف أن حياة الناس مبنية على الملء والتفريغ وأما ما ورد في سور (الم) عن الملء والتفريغ فأعرضه فيما يلي:

## أ - الزواج والحمل والولادة والبنون :

١ - قال تعالى ذاكرا الخطبة والنكاح ( الزواج ) : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ . . . وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ ( البقرة : ٢٣٥ ) .

٢ - وقال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ ( البقرة : ٢٢٣ ) .

٣ - وقال : ﴿ وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ ( البقرة : ٢٢٨ ) . والآية تشير إلى ملء الأرحام بالأجنة .

٤ - ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ ( البقرة : ٢٣٣ ) . والآية تشير إلى الولادة ( وهي تفريغ ) بكلمة الوالدات ، وإلى البنين وإلى تفريغ الثدي بالرضاعة .

٥ - ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ( لقمان : ١٤ ) والحمل ملء للرحم بالولد .

٦ - وتتميز قصة ولادة يحيى بدعاء أبيه زكريا عليها السلام بشدة حب الرجل للبنين ( آل عمران : ٣٨ )

٧ - وتشير قصة ولادة مريم عليها السلام إلى الحمل (الملاء) :  
﴿ اذ قالت امرأة عمرانَ رَبِّ إِنِّي نذرتُ لك ما في بطني محرراً ﴾ ( آل عمران : ٣٥ ) ، وإلى الوضع (التفريغ) : ﴿ فلما وَضَعْتُهَا قالت رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ ( آل عمران : ٣٦ ) .

ب - القناطر المقنطرة من الذهب والفضة (الأموال) :

١ - ﴿ وأحلَّ اللهُ البيعَ وحَرَّمَ الربا ﴾ (البقرة : ٢٧٥) . ففي البيع يعطي أحد المتبايعين الطرف الآخر نقوداً ، أي أن أحدهما يفرغ جيبه من النقود ويملاً الآخر بها جيبه . أما الربا فيشير إلى رغبة الإنسان المفرطة في جمع الذهب والفضة ، ولو عن طريق الحرام ، وعلى حساب فقر الفقراء .

٢ - ورد ذكر تبادل الأموال عن طريق الصدقات في آيات كثيرة جداً في سور (الم) ، منها مثلاً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا بما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ (البقرة : ٢٥٤) .

ج - الخيل المسومة (الحرب) :

بيّنت سابقاً أن الخيل المسومة ترمز إلى الحرب ، كما بينت ما في الحرب من ملء وتفريغ . وقد وردت في سور (الم) آيات كثيرة عن الحرب منها :

١ - الأمر بقتال المعتدين ﴿ وقاتلوا في سبيلِ الله الذين يقاتلونكم ﴾

البقرة : ١٩٠ ) .

٢ - قصة الحرب بين طالوت وداود وأعدائهما ( البقرة : ٢٤٦ - ٢٥١ ) .

٣ - الحرب بين المسلمين والمشركين في بدر ( آل عمران : ١٢٢ )  
وأُحد ( آل عمران : ١٣٩ ) .

٤ - الهجرة تحت ضغط تهديد الأعداء هي تفرغ وملء ، فالمهاجر من بلد يفرغ منه هذا البلد ، ثم يمتلئ به البلد الذي هاجر إليه . وقد ذكرت الهجرة في ( البقرة : ٢١٨ ) و ( آل عمران : ١٩٥ ) .

٥ - إن غضب الله على أعداء الرسل أدى إلى إهلاكهم وإبادتهم إبادة جماعية ، وتفرغ البلاد والأرض منهم . وقد ورد ذلك في سورة العنكبوت ( ١٤ - ٤٠ ) .

٦ - الحرب بين الروم والفرس وقد وردت في مطلع سورة الروم .

#### د - الأنعام والحرث :

ورد ذكرها في سور ( الم ) في الآيات :

١ - ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبت الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ﴾ ( البقرة : ٦١ ) .

٢ - ﴿ قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا ذلولٌ تثيرُ الأرض ولا تسقي الحرت ﴾ ( البقرة : ٧١ )

٣ - ﴿ وأنزل من السماء ماءً فأخرجَ به مِن الثمرات رزقاً لكم ﴾ ( البقرة : ٢٢ ) .

٤ - ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً وارزُق أهله من الثمرات ﴾ ( البقرة : ١٢٦ ) .

٥ - ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ ( البقرة : ٢٦١ ) .

٦ - ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهارُ له فيها مِن كل الثمراتِ . . . فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ﴾ ( البقرة : ٢٦٦ ) .

هذه الآية تذكر أولاً ( امتلاء ) البستان بالثمرات والمياه ، ثم تذكر تفريره باحتراقها .

٧ - ﴿ وكأين من دابةٍ لا تحملُ رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ ( العنكبوت : ٦٠ ) . هنا تكون الدواب فارغة من الرزق ، ثم يملأ الله بطونها بالرزق .

٨ - ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكلُ منه أنعامهم وأأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ ( السجدة : ٢٧ )



تشير هذه الآية إلى دور الماء في إحياء الزرع والأنعام . وأصل الماء من البحر ، فتثير الرياح بعض مائه بشكل بخار ( وهذه عملية تفرغ للبحر من بعض مائه ) ثم يتجمع البخار سحاباً ( وهذا ملء للسماء بالسحاب ) ثم ينزله مطراً ( وهي عملية تفرغ للسماء من بعض مائها ) وتمتلئ الأنهار والينابيع وجوف الأرض بالماء .

وتمتلئ أجسام الأشجار وبذور الزرع بالماء ، فينبت الزرع ، ويملأ الأرض . وتملأ الأبقار وغيرها بطونها بالزرع ، فتمتلئ أجسامها باللحم واللبن ، وتتوالد فتملأ الحقول بكثرتها ، وهي رزق عظيم للناس تمتلئ به بطونهم وجيوبهم .

٩ - تنقل السفن الناس والبضائع من بلد إلى بلد ، وبذلك تفرغ بلد المنشأ من بعض بضائعه وركابه ، وتملأ بلد المستقر بها . وقد ذكرت سور (الم) السفن في الآيات : ( البقرة : ١٦٤ ) ، ( الروم : ٤٦ ) ( لقمان : ٣١ ) ( العنكبوت : ٦٥ ) .

\* \* \* \*



## الفصل الثاني

الملء والتفريغ في أجل معانيه : ملء القلب بالتقوى والشكر.

عندما يتأمل الإنسان هذا الكون ويتفكر فيه وفي نفسه وجسمه ، ويرى ما فيه من حكمة وتدبير ، فإنه يعرف ربه ، ويعرف صفات الله الحسنى .

وصفات الله الحسنى - كما سبق - نوعان : صفات الجلال وصفات الجمال .

وعندما يشعر المرء بجلال الله وجبروته وعظمته المتجلية في هذا الكون ، فإن قلبه يمتلئ بالخوف منه تعالى ، ومن غضبه ، فيحاول اجتناب غضبه ، أي ( اتقاء ) غضبه ، أي أن قلبه يمتلئ بالتقوى . قال تعالى ﴿ فاتقوا النارَ التي وقودها الناسُ والحجارة ﴾ ( البقرة : ٢٤ ) ومعنى ذلك ( اجتنبوا النار التي هي مظهر من مظاهر غضب الله تعالى ) . فالتقوى إذن تملأ القلب نتيجةً لتفكير عقلي ، ولذلك قال تعالى :

﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ ( البقرة : ١٩٧ ) ، أي يا أصحاب العقول .

وعندما يشعر المتأمل في الكون بصفات الجمال الإلهية من رحمة وكرم وإحسان وإنعام على العباد ، فإن قلبه يمتلئ بالحب والشكر له تعالى على نعمه . وهذا يدفعه إلى عمل كل ما يُرضي الله تعالى .

ومن هنا كان على الإنسان أن يفرغ قلبه من طغيان الشهوات والأهواء ، ويملاً قلبه بهذين العنصرين ( التقوى والشكر ) اللذين يقودانه معاً إلى عبادة الله وطاعته . ونجد عنصري التقوى والشكر - بسبب وحدة هدفهما - متلازمين مقترنين في بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ ( آل عمران : ١٢٣ ) .

فمن اتقى الله كان شاكراً له . ومن شكر الله على نعمه اتقى بذلك عذابه .

وقبل أن أبين كيف يملأ الإنسان قلبه بالتقوى والشكر لا بد من ملاحظة أن ذلك لا يعني أبداً أن عليه أن يستأصل الشهوات من قلبه ، فهذا غير ممكن ، لأن استئصالها يقضي على الحياة ، بل عليه فقط أن يستأصل طغيانها ، ويخضعها للمنهج الإلهي الحكيم ، فيشبع شهواته بالزواج الحلال والطعام الحلال وامتلاك المال الحلال .

والآن ماهي التقوى وما هو الشكر؟

## أ - تقوى الله :

لقد عرضت سور ( الم ) أهم صفات المتقين في الآيات التالية :

١ - ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ ( البقرة : ٢ - ٤ ) .

٢ - ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ ( البقرة : ١٧٧ ) .

٣ - ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ ( آل عمران : ١٣٣ - ١٣٥ ) .

٤ - ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون

ربنا إِنَّا آمَنَّا بِكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ  
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿آل عمران : ١٥ - ١٧﴾ .

٥ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ( البقرة : ١٨٣ )

٦ - ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمْوهنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً  
فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَنْ  
تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ( البقرة : ٢٣٧ ) .

إذا تأملنا هذه الآيات وجدناها تصف المتقين بالصفات التالية :  
الإيمان بالله ( وسائر أركان الإيمان ) ، والصدق والصبر وكظم الغيظ  
والعفو والإحسان والقنوت وذكر الله والاستغفار ، وعدم الإصرار على  
الذنب وإقامة الصلاة وإنفاق الأموال ( الزكاة ) والصيام .  
والثلاث الأخيرة منها هي من العبادات المفروضة .

## ب - شكر الله :

إن الشكر هورد الفعل الفطري للإنسان على النعم التي يغمره الله بها  
منذ خلقه وتزويده بحواسه من سمع وبصر ، وبعقل يدرك به حقائق  
الأمور ، وبأغذية مختلفة المصادر كالثمرات والأنعام ، وبمياه الأمطار  
والأنهار والبحار وبالسفن التي تجلب الأرزاق ، وبالأحوال الكونية المناسبة  
من شمس وقمر ونجوم وليل ونهار ، ومن جبال راسية تمنع سطح الأرض  
من الزلازل المتواصلة .

وقد عدّدت سور ( الم ) كثيراً من هذه النعم الإلهية ، مطالبة الناس بالاعتراف بها وشكر الله عليها ، وعدم جحودها والكفر بها . فمن الآيات المطالبة بشكر الله :

١ - ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ( البقرة :

( ١٥٢ )

٢ - ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ ( العنكبوت :

( ١٧ )

٣ - ﴿ وَلَتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ( البقرة :

( ١٨٥ )

٤ - ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ ( البقرة :

( ٤٠ )

٥ - ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ( آل عمران : ١٢٣ ) .

وهذه الآية الأخيرة تفيد باختصار أن من أراد أن يشكر الله فعليه أن يتمسك بالتقوى . وقد تبين لنا أعلاه كيف يتمسك المرء بالتقوى . والآيات الأخرى لا تُخرج الشكر عن معاني التقوى . فهي تشير إلى أن الشاكرين : يعبدون الله ويكبرونه ويوفون بعهده ويذكرونه ويؤمنون به ولا يكفرون به .

وهناك آيات كثيرة في سور ( الم ) تعدّد النعم الخاصة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، فلم يشكروه عليها وكفروا به وعبدوا العجل وقتلوا

الأنبياء وعصوا ربهم واعتدوا على حرماته . فمن هذه النعم أنه تعالى فضلهم على العالمين بإرسال الرسل إليهم ، ونجاهم من فرعون وجنده ، وآتى نبيهم موسى التوراة ، وأحياهم بعد موتهم بعد أن قتلتهم الصاعقة التي استحقوها بطلبهم من موسى أن يريهم الله جهرة ، وظلل عليهم الغمام ليقبهم حر شمس الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى وفجر لهم اثنتي عشرة عيناً من الماء ، كما ذكر الله أهل مكة بالنعم التي خصهم بها ، فقد جعل البيت الحرام في بلدهم مما جعلهم آمنين على تجارتهم وسلامة أفرادهم من العدوان الذي يجتاح سائر قبائل العرب ، كما أنه تعالى خصهم بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وبالقرآن الكريم المجيد .

وذكر الله المسلمين بنعمه عليهم كنصرهم في معركة بدر ، وبتأليف قلوبهم بعد أن كانوا في الجاهلية أعداء ، وبتعليمهم بكتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﴿ الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم وأشكروالي ولا تكفرون ﴾ (البقرة: ١٥١ ، ١٥٢) .  
والخلاصة أن التقوى والشكر هما ما يجب أن يملأ به الإنسان قلبه  
فذلك خير ما يلائمه في الدنيا والآخرة .

ولما كان الإيمان هو أول أركان التقوى والشكر ، فلا بأس أن أعرض بعض صفات المؤمنين التي تميزهم عن غيرهم وردت في سور (الم) ، متبوعاً إياها بصفات الكافرين :



## صفات المؤمنين :

- ١ - المؤمن يحافظ على صلواته ويصلي خاشعاً قانتاً لله ( البقرة : ٢٣٨ ) . ويتصدق دون أن يمن على الفقير أو يؤذيه .
- ٢ - المؤمن دائم التفكير في خلق السماوات والأرض في جميع أحواله ( آل عمران : ١٩١ )
- ٣ - المؤمن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ( آل عمران : ١٠٤ )
- ٤ - المؤمن صابر على بلاء الله ( البقرة : ١٥٦ ) .
- ٥ - المؤمن صادق الوعد موف بالعهد ( البقرة : ٤٠ ) .
- ٦ - المؤمن لا يستكبر على غيره من البشر ( السجدة : ١٥ ) .
- ٧ - المؤمن يتقبل كل ما نزل من عند الله من كلام ، سواء أفهمه أم لم يفهمه ، ولا يعترض عليه ، بل يقول « آمناً به كُـلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » ( آل عمران : ٧ ) .
- ٨ - المؤمن يشعر بأنه أعلى من الكافر مهما كان الكافر يملك من القوى المادية ( آل عمران : ١٣٩ ) ولا تخيفه ولا تغره سيطرة الكفار على البلاد ( آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧ )
- ٩ - المؤمن يؤمن بأن النصر من عند الله ويتوكل عليه في جميع أموره ( آل عمران : ١٠٣ )

## صفات الكافرين :

- ١ - الكافر يتبع الهوى لا العقل فيستكبر ويطغى ( البقرة : ٨٧ )  
( الروم : ٢٩ )
- ٢ - الكافر يتبع آباءه اتباعاً أعمى ولو كانوا لا يعقلون ( البقرة :  
١٧٠ ) .
- ٣ - الكافر يظن أن دخول الجنة ليس بالعمل الصالح بل بالانتماء  
العرقى إلى طائفة (البقرة: ١١٢).
- ٤ - الكافر لا يؤمن بقضاء الله وقدره ، ويظن أنه يستطيع النجاة من  
الموت بقدرته الخاصة ( آل عمران : ١٥٤ ) .
- ٥ - الكافر لا يخلو من الحسد ( البقرة : ١٠٩ )
- ٦ - الكافر سريع اليأس ( الروم : ٣٦ )

\* \* \* \*

## الفصل الثالث

الماء والتفريغ في أركان الإسلام وفي الآخرة

### ١ - الماء والتفريغ في أركان الاسلام :

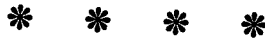
لقد أوضحت في الفصل الأول من الباب الثالث أن أركان الإسلام الخمسة ( وهي الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج ) تستند جميعاً إلى قاعدة واحدة هي قاعدة : النفي ثم الإثبات أو التطهير ثم التعطير . فمثلاً حين نقول ( لا إله إلا الله ) ، فإن قول ( لا إله ) نفي للآلهة الباطلة من القلب ، وقول (إلا الله) إثبات لله الحق في القلب ، أي أن نفي الآلهة الباطلة هو تفريغ للقلب منها لإله واحد هو الله وحده ، وهو ملء للقلب به تعالى .

### ٢ - الماء والتفريغ في الآخرة :

تستمر عمليات ( الماء والتفريغ ) في الآخرة أيضاً حيث نجد أخطر مجالاتها . فإن الذين استطاعوا - بتوفيق الله - أن يملئوا قلوبهم في الدنيا بتقوى الله وشكره ، فسوف يدخلون الجنة فيملئون بيوتهم فيها ، وسيجدونها ممتلئة بأصناف لا تحصى من النعيم .

وأما من تقاعسوا عن ملء قلوبهم بالتقوى والشكر ، وتركوها مملوءة  
بالأهواء الطاغية والشهوات العاتية ، فإنهم سيدخلون جهنم ويملئونها ،  
ويجدونها مملأى بأصناف عديدة من العذاب . قال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا  
كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ ﴾ ( السجدة : ١٣ ) .

وهكذا تظهر بوضوح أهمية ( الملء والتفريغ ) في الدنيا والآخرة ، في  
القلوب والأجسام ، في المجتمعات والأفراد .



## الباب السادس

- الفصل الأول - التركيب (ملأ) المجتمع المتلائم  
الفصل الثاني - الملاء والتراكيب التصنيفية الاصطفائية  
الفصل الثالث - الملاء والحروب والتلاؤم  
الفصل الرابع - التركيب (مال) وتلاؤمه مع (الملاء)



## الفصل الأول

### التركيب (ملاً) المجتمع المتلائم

ننتقل الآن إلى التركيب (ملاً) ، والملاً يعني (القوم) أو (الجماعة) أو (المجتمع) . وهذا يوحي لنا بأن الإسلام دين جماعة وليس دين أفراد ، فهل نجد في سور (الم) ما يؤكد ذلك ؟

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران : ١١٠) . فالمسلمون أمة ؛ أي جماعة عظيمة ، وهي مجتمع مُتَماسِك لأنَّ فيها الأمور بالمعروف إن تقاعس عنه البعض ، الناهون عن المنكر إن وقع فيه البعض ، فهناك مَنْ هو حريص على صلاح الأمة بأسرها ، وَمَنْ يُعْنَى بِسَلامَتِها من التفكك والانهيار ، ومن يريد أن يستمر مجتمعها يلائم بعضه بعضاً .

وقوله تعالى: ﴿وتؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني أن الإيمان بالله الواحد يعزِّز تماسك هذا المجتمع ، الذي يجتمع على حبِّ الله ، ولا تنحرف قلوب أفرادهِ إلى

حب غيره في الآلهة الباطلة ، فتتفرق قلوبهم ويتمزق جمعهم : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حُباً لله﴾ (البقرة : ١٦٥) .

وتلخّ سور (الم) على هذا المجتمع (الملاّ) أن يكون متماسكاً فتقول له : ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾ (آل عمران : ١٠٣)

وتؤكد سور (الم) أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً في الآيات : (آل عمران : ١٠٤ ، ١١٤) (لقمان : ١٧)

### تشريعات الإسلام تدعم تماسك المجتمع :

أ - سنّ الإسلام تشريعات مالية عديدة تمنع الصراع الطبقي وتحفظ الانسجام والتلاؤم بين الأغنياء والفقراء . وهي تتعلق بالزكاة والصدقات والربا وكتابة الدين عند كاتب العدل . وقد فصلت سور (الم) كثيراً منها . وسأعرض ذلك إن شاء الله في بحث (المال) .

ب - جعل الإسلام العبادات الأساسية الأخرى تظاهرات جماعية توحد المشاعر .

١ - فالصلاة ، في أكمل حالاتها ، صلاة جماعة يفوق ثوابها ثواب صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفاً ، كما ورد في حديث متفق عليه ،



ووجود إمام واحد وقبلة واحدة يعزز الشعور الجماعي .  
٢ - والصيام يجتمع فيه المسلمون جميعاً في وقت واحد على مائدتي  
الفطور والسحور .

٣ - والحج يجتمع فيه عدد هائل من المسلمين من أرجاء الأرض ،  
يقومون بشعائر واحدة في نفس الوقت ، ويلبسون لباس الإحرام  
الموحد .

ج - إن شهادتي (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) هما شعار الإسلام  
الواحد الخالد الواضح الذي يتكرر على شفاه المؤمنين في جميع الأوقات  
فيوحد قلوبهم حول الله الواحد والرسول الواحد .

د - منع الاسلام شرب الخمر ولُعَبَ الميسر لأنها يسببان العداوة  
والبغضاء بين أفراد المجتمع (البقرة : ٢١٩)

هـ - أمر الإسلام القائد بأن يكون رحيماً برعيته لئناً معهم فيلتفوا  
حوله : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا  
من حولك﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، كما حث القائد على العفو عن أخطاء  
رعيته وعلى مشاورتهم في أمور المجتمع : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

و - منع الشرع الجدل في الحج منعاً للخصام والعداوة (البقرة :  
١٩٧) ، كما حث أتباعه على التحلي بالصبر وكظم الغيظ والصفح (آل  
عمران : ١٣٤)

ز - أمر الإسلام أتباعه بقول الحق وعدم كتمان الشهادة ، لأن الشهادة الصادقة تساعد على إقامة العدل وتمنع الظلم الذي يهدد بانحيار المجتمع . (البقرة : ٤٢ ، ٢٨٣) .

ج - أمر الإسلام برعاية الأيتام وجعلهم بمثابة الأخوة (البقرة : ٢٢٠) ط - منع الإسلام أن تتميز طائفة من المجتمع على غيرها بإعفائها من الشريعات الدينية دون سائر الطوائف : ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾ (البقرة : ٤٤) .

ي - عدّ الإسلام السّحر كفراً لأنه ينشر العداوة في المجتمع ويفرّق بين المرء وزوجه (البقرة : ١٠٢)

ك - منع الإسلام أتباعه من مخالفة الكفار ضدّ إخوانهم المسلمين (آل عمران : ٢٨) .

ل - إنّ المؤمن ، حتى بعد موته شهيداً ، يبقى قلبه مرتبطاً بإخوانه المؤمنين الذين لم يموتوا بعد ، فيفرح لهم ويستبشر لهم : ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ (آل عمران : ١٦٨ - ١٧٠) .

ملاً آخرون غير المسلمين :

ذكرت سور (الم) جماعات أخرى غير مسلمة من البشر أمثال اليهود والنصارى والصابئين ، (البقرة : ٦٢) ، وأمثال الكافرين عامة والمنافقين خاصة (البقرة : ٧ ، ٨) .

ملأ من غير البشر :

ذكرت سور (الم) أيضاً من أصناف الملائكة (الملائكة) - وهم الملائكة الأعلى - وكذلك الشياطين .

أما الملائكة فالإيمان بهم من أركان الإيمان : ﴿والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ (البقرة : ٢٨٥) . وهم من أكابر مَنْ يشهدون لله تعالى بالوحدانية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران : ١٨) .

والملائكة ينزلون بإذن الله لنصرة المؤمنين في معاركهم مع الكفار (آل عمران : ١٢٤) .

وقد بشر الملائكة زكريا بأن الله سيرزقه يحيى (آل عمران : ٣٩) وبشروا مريم بعيسى (آل عمران : ٤٥)، وأخطأ قوم فعبدوا الملائكة (آل عمران ٨٠) ، واتخذ اليهود جبريل الملك عدواً لهم (البقرة : ٩٧) .

وقد ذكرت سور (الم) الشياطين ، فقصّت امتناع الشيطان الأكبر ابليس عن السجود لأدم ثم عداوته له ووسوسته له واغراءه له بالأكل من الشجرة المحرمة مما أدى إلى إخراجه من الجنة .

ولاتزال الشياطين توسوس للناس تعدهم بالفقر وتأمهم بالفحشاء لتتغص عليهم معيشتهم (البقرة : ٢٦٨) ، ويتخبطون بعض الناس من المسّ (البقرة : ٢٧٥) ويغرون المقاتلين من المؤمنين بالفرار من القتال (آل عمران : ١٥٥) ، ويُعلمون الناس السحر ، وهو كفر (البقرة : ١٠٢)

## تلاؤم الملائم المسلم مع غيره من الملائم :

أ - الملائم (المجتمع) المؤمن منفتح على المجتمعات الأخرى فيقبل الذين يدخلون الإسلام منهم دون تفرقة (آل عمران : ١٩٩) ، وينصف الذين لا يدخلون الإسلام ، فلا يعتبرهم جميعاً خائنين في معاملاتهم المالية (آل عمران : ٧٥) ، ولا يجادلهم في دينهم إلاّ بالتتي هي أحسن (العنكبوت : ٤٦) .

ب - أما الأسلوب الذي يلائم الملائم المسلمين في تعاملهم مع الشياطين ، فهو الحذر من وساوسهم ودسائسهم ، واجتناب ما يوحون به من أعمال السحر والفساد والفتن والأهواء .

ج - ويتلاءم الملائم المسلمون مع الملائكة بالإيمان بهم كركن من أركان الإيمان ، ويحلي المساجد - وهي من أماكن تواجد الملائكة - من الروائح الكريمة كالبصل والثوم ، ويملؤها بروائح العطور .

\* \* \* \*

## الفصل الثاني

### الملا والتراكيب التصنيفية الاصطفائية

لقد بينت في الفصل الثالث من الباب الأول أن التركيب التصنيفي الاصطفائي يتم بتقسيم مجموعة كبيرة من العناصر إلى مجموعة صغيرة يشترك كل منها في صفة واحدة معينة ، ثم يتم اصطفاء (انتقاء) إحدى هذه المجموعات لعمل معين .

وقد اعتنت سور (الم) ببيان عدد من التراكيب التصنيفية البشرية ،  
١ - وبينت ما اصطفى الله تعالى من أصنافها مميزاً إياها عن غيرها وفيما يلي بعضها :  
١ - صنف الله الناس إلى ثلاثة أصناف هم :

أ - صنف المتقين : ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ . (البقرة : ٢ ، ٣) .

ب - صنف الكافرين ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ (البقرة : ٦) .

ج - صنف المنافقين : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر

وما هم بمؤمنين ﴿البقرة : ٨﴾ .

ثم اصطفى الصنف الأول لقبول هُداة ، ثم يصطفيه يوم القيامة لدخول الجنة : ﴿وبشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَن لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة : ٢٥) .

فالعَمَلِيَّةُ التَّصْنِيفِيَّةُ الاِصْطِفَائِيَّةُ هَذِهِ هِيَ أخطر عملية تمس حياة الإنسانية جمعاء ، وَمِنْ أَجْلِهَا أَنْزَلَ اللهُ الْكُتُبَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَحَلَّ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ .

٢ - تصنّف سور (الم) الملأ من أهل الكتاب بصفة خاصّة إلى صنفين : الصالحون والفاسقون : ﴿ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ (آل عمران : ١١٠) ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ... وأولئك من الصالحين﴾ (آل عمران : ١١٣ - ١١٤) ويصطفى الله الصالحين طبعاً لدخول الجنة يوم القيامة .

٣ - صنّف الله الصالحين من البشر إلى عدة أصناف ، ثم اصطفى أصلحهم وأعلاهم درجات ليكونوا أنبياء ورسلاً : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) .

٤ - قبل معركة أحد كان المؤمنون مختلطين بالمنافقين ، فابتلى الله

المؤمنين بالهزيمة في المعركة ، ليظهر المؤمنون من المنافقين في صنفين متمايزين : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾ (آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧) ، ﴿وما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعهكم على الغيب ولكن الله يجتبي - أي يصطفى - من رسله ما يشاء﴾ (آل عمران: ١٧٩) .

٥ - الأديان أصناف كثيرة ، أصدقها الإسلام ، وقد اصطفى الله الإسلام لأوليائه وبخاصة الأنبياء الذين اصطفاهم على العالمين : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة: ١٣٠ - ١٣٣) .

٦ - صنف الله النساء في زمن السيدة مريم إن الله أصناف ثم اصطفى مريم لتكون أمًا للمسيح عليه السلام : ﴿وإذا قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين) .

٧ - صنف الله الأنبياء درجات ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ . ثم اصطفى عليهم محمداً ﷺ ليكون خاتمهم وأفضلهم .

٨ - اصطفى الله الأمة الإسلامية . لتكون خير أمة أخرجت للناس  
(آل عمران : ١١٠) ، كما اصطفاهما لتشهد على جميع البشر (البقرة :  
١٤٣) .

٩ - صَنَّفَ اللهُ الأُمَّمَ (الملاء) في أيام بني إسرائيل الأولى ، واصطفى  
بني إسرائيل حينئذٍ على العالمين : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي  
أنعمت عليكم وأني فضَّلْتُكم على العالمين﴾ (البقرة : ٤٧) . لكن بني  
إسرائيل كفروا بهذه النعمة فيما بعد وانحطوا إلى أسفل الدرجات .





## الفصل الثالث

### الملأ والحروب والتلاؤم

لقد عرضت سور (الم) ، حروباً جرت بين الملأ ، وهي نوعين :  
أولهما - حروب نشأت بين الروم والفرس بسبب العصبية الدينية  
والقومية .

ثانيهما - حروب نشأت بين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ودولة  
المشركين في مكة ، وهي ناشئة عن خلاف ديني عميق .

وتشبهها الحروب بين ملك بني اسرائيل طالوت وأعدائه من المشركين  
بقيادة جالوت . غير أن نتائج هذه الحروب تتلاءم مع السنن الإلهية  
الخاصة بالجماعات البشرية (الملأ) ، وهي السنن التي تشير إليها الآية  
﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة  
المكذبين ﴾ (آل عمران : ١٣٧) .

سنن الله في الخصومات :

يمكننا أن نتبين السنن الإلهية التالية من سور (الم) :

١ - أن الغلبة لا تدوم أبد الدهر لأمة من الأمم . بما فيها الدولة الإسلامية ، وذلك طبقاً للسنة الإلهية ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران : ١٤٠) وذلك بمقتضى إرادة الله الحكيمة .

٢ - أن العاقبة للمتقين ، أي النصر النهائي لهم ، وذلك كما تقرره الآية (آل عمران : ١٣٧) السابقة .

٣ - أن النصر من عند الله وحده وليس بسبب كثرة العدد (البقرة : ٢٤٩ ، آل عمران : ١٢٦) .

٤ - أن الحروب بين الملأ ضرورة مشروعة للقضاء على الفساد والعدوان والظلم . قال تعالى : ﴿ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (البقرة : ٢٥١)

وطبقاً لهذه السنن الإلهية عرضت السور المعارك التالية بين الملأ :

أ - معركة بدر التي انتصر فيها عدد قليل من المؤمنين على ثلاثة أضعافهم من المشركين (آل عمران : ١٢٢) .

ب - معركة أحد بين الملأ المؤمنين والملأ الكافرين التي أصيب فيها المسلمون بالهزيمة لمعصيتهم بعض أوامر الرسول وتلاؤم ذلك مع السنة رقم (١) أعلاه .

ج - الحروب بين الفرس والروم ، وهما أعظم امبراطوريتين في ذلك الزمان . وقد أنبا القرآن الكريم في مطلع سورة الروم أن الفرس قد

غلبت الروم وأن الروم سينتصرون على الفرس بعد بضع سنين ، مؤكداً  
سنتين من سنن الله في الحروب ، قد تلاءمت معها نتائج هذه الحروب ،  
وهما : أن النصر لا يبقى حليفاً للدولة واحدة أبد الدهر ، وأن النصر بيد  
الله وحده .

د - الحرب بين مؤمني بني إسرائيل والكفار . وكان عدد بني إسرائيل  
قليلاً ، لكن الله نصرهم لصبرهم وإيمانهم وتقواهم وتضرعهم إلى ربهم  
وحده أن ينصرهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على  
القوم الكافرين﴾ (البقرة : ٢٥٠) .





## الفصل الرابع

التركيب (مال) وتلاؤمه مع (المال)

والآن نأتي إلى التركيب (مال) وله قراءتان : الأولى (مال) بمعنى انحرف ، ونرجئه إلى فصل قادم إن شاء الله ، والثانية (مال) وهو اسم جمعه أموال ، وهذا بحث فيه .

أهمية المال :

المال أمر خطير جداً في حياة الإنسان ، وقد حجب الله شهوة اقتناء القناطير المنظرة من الذهب والفضة إلى الناس . وقد عاجلت سور (الم) موضوع المال معالجة وافية بسبب تأثيره الخطير في سلوك الإنسان ، وفي حفظ التلاؤم والتوازن بين طبقات (المال) أي المجتمع . فالمال والملا مفهومان مقترنان متلازمان منذ القدم ويتجلى ذلك في الأمور التالية :

١ - الزكاة :

إن الزكاة إحدى فروض الإسلام الخمسة وبها يحدث التلاؤم والتآلف بين الفقراء والأغنياء ، وبها يستغني المعوزون عن القيام بالسرقات والجرائم التي يضطرون إليها الجوع . وقد تكرر ذكرها في سور (الم) (البقرة : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، ١٧٦ - الروم : ٣٩ - لقمان : ٤) .

## ب - الصدقات :

وهي ما يتطوع به الإنسان خلاف فريضة الزكاة ، وقد حث الإسلام عليها كثيراً ( البقرة : ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ) ( آل عمران : ٩٢ ، ١٣٤ ) ( الروم : ٢٨ ) ( السجدة : ٣ ) . وقد بينت هذه الآيات لمن تدفع الصدقات من فقراء ومساكين وابن السبيل وغيرهم . كما بينت أن دفعها سرّاً أفضل من دفعها جهراً ، وحرّمت تحريماً قاطعاً الأذى والمنّ على الفقير وجرح شعوره ، وحثت على العناية بالفقراء والمتعفين الذين يحسبهم الجاهل بأحوالهم أغنياء من تعففهم الشديد . وبذلك بينت الآيات الآداب الملائمة لأداء هذا العمل الجليل ، بحيث يتم التلاؤم التام بين طبقات الملأ .

## ج - إعطاء الوالدين :

حثت سور ( الم ) على إعطاء الأموال للوالدين ( البقرة : ٢١٥ ) وأمرت بالوصية للوالدين من أموال الميراث ( البقرة : ١٧٩ ) .

## د - البيع والربا :

أحل الله البيع الحلال وحرّم الربا بجميع أشكاله المضاعفة وغير المضاعفة وأعلن الحرب على آكله ( البقرة : ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ٢٧٨ - ٢٧٩ - آل عمران : ١٣٠ - الروم : ٣٩ )

وأبيحت التجارة في أثناء الحج : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا

فضلاً من ربكم ﴿ (البقرة : ١٩٨) .

هـ - الدين :

من التنظيمات الهامة التي أحدثها الإسلام كتابة الديون في صكوك يكتبها كاتب بالعدل ، مما يحفظ حقوق الناس ، وذلك ضمن أحكام دقيقة، إذ (يكتب شخص ثالث الصكّ هو كاتب العدل)، بإملاء من المدين أو وليه ، ويشهد على الدين رجلان أو رجل وامرأتان .

وعندما يكون الدائن والمدين على سفر ولم يجدا كاتباً فإن الدائن يأخذ رهاناً من المدين . ( البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ) . وقد حثت سورة البقرة ( ٢٨٠ ) الدائن على إنظار المدين المعسر حتى ييسر الله له سداد دينه ، بل وعلى إعفائه من الدين إعفاءً تاماً .

و - الكفارات :

هي أموال يدفعها المسلم إذا عجز عن القيام بأحد الفروض أو الواجبات بسبب عذر كالمرض أو السفر . ومن ذلك فدية العاجز عن الصوم ( البقرة : ١٨٤ ) ، وفدية نحر الهدي لمن كان مريضاً في الحج ( البقرة : ١٩٦ ) .

ز - المال في الزواج والطلاق :

ذكرت سور ( الم ) كثيراً من أحكام الخطبة والزواج والطلاق والأمور

المالية المتعلقة بذلك ، وهي خطيرة لمساسها بتلاؤم الأسرة لبنة المجتمع الأولى .

فمن ذلك جواز دفع المرأة لزوجها فدية كي يطلقها إن كانت حياتها الزوجية تعيسة ( البقرة : ٢٢٩ ) .

ومنه أن رزق المطلقة التي تحضن طفلاً وكسوتها واجبة على والد الطفل ( البقرة : ٢٣٣ ) .

ومنه أن الزوج يدفع للزوجة نصف المهر إذا طلقها قبل أن يمسيها ( البقرة : ٢٣٧ ) . وتحث السورة الزوجة أو وليها على إعفائه من جميع المهر .

### المال والقضايا الخلقية :

إن للمال آثاره النفسية الخطيرة وارتباطاته الخلقية الهامة التي تعرضت لها سور ( الم ) ، فمنها :

١ - قد يبخل الإنسان بماله ظاناً أن ذلك خير له ، لكن البخل شر في الدنيا والآخرة ( آل عمران : ١٧٩ )

٢ - وقد يسيطر الطمع في المال على الإنسان فيدعوه إلى أكل أموال بالباطل بمساعدة الحكام ( البقرة : ١٨٨ ) .

٣ - الدّين محك الأمانة ، فإن أدّى المدين للدائن دينه في وقته دون إلحاح من الدائن ، دلّ ذلك على أمانة المدين . وإن لم يدفعه إلا بطلب



متواصل كان المدين غير أمين ( آل عمران ٧٥ ) .

٤ - عبادة المال : يعدّ بعض الناس ( المال ) هو المقياس الوحيد لصلاح الرجال للزعامة وقيادة الشعب . فقد اعترض اليهود على تعيين طالوت ملكاً عليهم محتجّين بأنه لا يملك مالاً كثيراً . ﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال! ﴾ (البقرة: ٢٤٧) .

٥ - في الآخرة يبطل سحر المال وفعله ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فلن يُقْبَلَ من أحدهم مِلءُ الأرضِ ذَهَباً ولو افتمدى به ، أولئك لهم عَذَابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرين ﴾ ( آل عمران : ٩١ )

\* \* \* \*

والخلاصة أن سور ( الم ) بينت كيف أقام الإسلام التلاؤم والتوازن بين المال والملا ( المجتمع ) . والمال والملا هما من التراكيب البديلة للحروف ( ألف لام ميم )

\* \* \* \*



## الباب السابع

### التركيبان (مَال) و(لَام) والتلاؤم بينهما

أبحث الآن في التركيبين (مَال) ، انحرف ، و(لَام) أي وُبَّخَ ، وهما معنيان متلازمان ومتلائمان ، ذلك لأن مَن مال وانحرف عن طريق الصواب ، فإننا نوبّخه ونلومه على انحرافه ليعود إلى الصراط المستقيم .

وقد حفلت سور (الم) بذكر ميل (انحراف) بني اسرائيل والمشركين عن جادة الصواب ، وتوجيه عبارات اللوم إليهم . وللتوبيخ واللوم صيغ مختلفة أمثال ﴿ أفلا تعقلون ؟ أفلا تسمعون ؟ والله عليم بالظالمين ﴾ ، ومثل نسبة الملوّمين إلى الطغيان والجهل ومرض القلب والظلم والكذب والفساد والعمى والبكم والصمم ، وتهديدهم بالويل والعذاب ونسبة آبائهم إلى عدم العقل والهوى .

فمن ذلك ما يلي :

١ - مَال الكفار عن الحق إذ عرضوا عن الإيمان بالرسول : ﴿ إن الذين كفروا سَاءَ عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ . ولامهم الله فقال ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (البقرة : ٦ ، ٧) .

٢ - مَال المنافقون بلجوئهم إلى الخداع ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا

وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يشعرون ﴿١٠﴾ - ولامهم الله فقال : ﴿ في قلوبهم مرضٌ فزادهمُ اللهُ مرضاً ﴾ ( البقرة : ٩ ، ١٠ ) .

٣ - الميل : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ﴾ - واللوم ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ( البقرة : ١١ ، ١٢ ) .

٤ - ويشبه ما سبق نسبة المنافقين إلى السفاهة ( البقرة : ١٣ ) والطغيان ( البقرة : ١٦ ) وتشبيهم بالذي استوقد ناراً فانطفأت فبقي في الظلام ( ١٧ ، ١٨ ) وتشبيهم بمن خطف البرق أبصارهم ( ١٩ ، ٢٠ ) .

٥ - نسب الله آدم إلى الظلم لأكله من الشجرة المحرمة ( ٣٥ )

٦ - الميل : ﴿ أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم ﴾ - واللوم : ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ( البقرة : ٤٤ ) .

الميل : عبادة بني إسرائيل للعجل - واللوم : نسبتهم إلى الظلم ( ٥١ )

الانحراف : طلب بني اسرائيل البقل والقثاء والعدس والبصل بدلاً من المنّ والسلوى -

واللوم : ﴿ أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ﴾ ( البقرة : ٦١ ) .

٧ - ومن انحرافات بني اسرائيل التي لامهم الله عليها : كتابتهم

للكتاب بأيديهم وزعمهم بأنه من عند الله ( البقرة : ٧٩ ) ، وزعمهم أن الله لن يعذبهم على جرائمهم في جهنم إلا أياماً معدودة ( البقرة : ٨٠ ) ، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ( ٨٥ ) ، وكفرهم برسالة محمد ﷺ مع أنهم عرفوا من علاماته في كتبهم أنه رسول حق من عند الله ( ٨٩ ) ، وزعمهم أن الدار الآخرة لهم وحدهم من دون الناس ( ٩٥ ) ، وحرصهم الشديد على الحياة الدنيا ( ٩٦ ) ، وعداوتهم للملك الكريم جبريل عليه السلام ( ٩٨ ) ، واتباعهم للشياطين وتعلمهم السحر ( ١٠٢ ) ، ومحاولتهم رد المسلمين إلى الكفر حسداً من عند أنفسهم ( ١٠٩ ) ، وكتمانهم ما أنزل الله ( ١٥٩ ) ، وتخاذلهم عن القتال ( ٢٤٦ ) ، وزعمهم أن إبراهيم ﷺ يهودي ، وما أنزلت التوراة التي هي كتاب اليهودية إلا في زمن موسى بعد إبراهيم بأحقاب طويلة ( آل عمران : ٦٧ ) ، ولام الله اليهود على أكلهم أموال غير اليهود بالباطل زاعمين أن ذلك يحل لهم ( آل عمران : ٧٥ ) ، وقولهم ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ ( ١٨١ )

٨ - ولام الله الذين قالوا ﴿اتخذ الله ولداً﴾ ( البقرة : ١١٦ ) .

٩ - ولام الله المشركين لاتباعهم دين آبائهم اتباعاً أعمى بلا عقل ولا هدى ( البقرة : ١٧٠ ) ، ولامهم على شدة حبهم للحياة الدنيا وسخريتهم من المؤمنين ( ٢١٢ ) ، ولام الذين يفرحون متكبرين إذا عملوا بعض الأعمال ويحبون أن يحمدهم الناس على شيء لم يفعلوه ( آل عمران : ١٨١ )

عمران : ١٨٩ ) ولام الذين يحسبون حساب عذاب الناس أكثر مما يحسبون حساب عذاب الله ( العنكبوت : ١٠ ) ، ولام الكافرين الذين يُغرون المؤمنين بالكفر ، قائلين لهم : لو كان هناك حساب على خطايا في الآخرة فإننا سنتحمل خطاياكم عنكم إذا كفرتم مثلنا ( العنكبوت : ١٢ ) ، ووبخ المشركين الذين يعتمدون على آلهتهم الباطلة فشبّههم بمن يلجأ إلى بيت جدرانه مصنوعة من خيوط العنكبوت الواهنة ( العنكبوت : ٤١ ) ، ولام الذين يشوّشون على قراءة القرآن برفع الصوت بالغناء وباللهو ( لقمان : ٦ ) .

ولام الله الذي يتكبر على الناس ويمشي في الأرض مرحاً وشبهه صوته المرتفع بصوت الحمير ( لقمان : ١٩ ) ويلوم الله الذي يدعو الله مخلصاً حين يقع في شدّة ، ثم يعود إلى الكفر بعد أن ينجّيه الله منها فيصفه بأنه ختار كفور جحود ( لقمان : ٣٢ ) .

١٠ - ولام الله المنافق المفسد المعتز بالإثم ( البقرة : ٢٠٦ ) ، كما لام

الذين يتبعون آيات الكتاب المتشابهة ، بقصد إحداث الفتنة ، ووصفهم بالزيف في قلوبهم ( آل عمران : ٧ ) .

١١ - ولام الأزواج المنحرفين بإمساك نسائهم ضراراً ليعتدوا فوصفهم

بالظلم وبتخاذ آيات الله هزواً ( البقرة : ٢٣١ ) ، كما لام المتصدق الذي يمنّ على الفقير ويؤذيه ( البقرة : ٢٦٦ ) ، ولام آكل الربا فوصفه بأنه كالذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ( البقرة : ٢٧٥ ) .

## الباب الثامن

### أسماء الله الحسنى والتلاؤم

سبق أن ذكرت أن الله تعالى مجموعتين من الصفات الحسنى ،  
(أولاهما) : مجموعة صفات الجلال التي تبعث الخوف والهيبه في  
النفس ، كمثل صفات (العزیز ، الجبار ، القهار) (وثانيتها) :  
مجموعة صفات الجمال ، التي تبعث المحبة لله تعالى في النفس ، كمثل  
صفات (الكريم الرحيم ، الغفور ، الودود) .

وصفات الجلال والجمال تتجليان على الكون والناس بحيث يتوازن  
أثرهما في الكائنات ، فترى الكون مزدهراً والحياة نامية فيه منذ أحقاب  
بعيدة .

فإذا تجلت صفات الجلال على إنسان مثلاً ، فقد يصاب بالمرض أو  
بالفقر أي بالألم . وإذا تجلت عليه صفات الجمال فإنَّ الله يشفيه ويغنيه  
باعثاً في نفسه الأمل .

فالإنسان في تجليات صفات الجلال وصفات الجمال عليه بين (الألم  
والأمل) ، وقد سبق أن بينت في فصل سابق أن بين الألم والأمل تلاؤماً  
وتوازناً .

غير أن هذه التجليات جميعها لا تحدث خبط عشواء ، ولا دون تدبير مسبق ، بل هي تتجلى بمقتضى اسمه تعالى ( الحكيم ) . إن أعماله تعالى تتنزه عن الباطل وعن العبث ، وتحدث بحكمة بالغة وإتقان يوصلها إلى التلاؤم الكامل ، فيغدو الكون بأسره ، وفي جميع دقائقه متلائماً متوازناً مزدهراً جميلاً ، فأرجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، عاجز عن أن يجد أدنى خلل أو عيب في هذا الكون .

الله الحكيم : إن اسمه تعالى ( الحكيم ) هو الاسم الذي يدلّ دلالة مباشرة على ( التلاؤم ) في أفعال الله . فإن الحكمة تعني وضع الشيء المناسب ( الملائم ) في المكان المناسب ( الملائم ) وفي الزمن الملائم . فالله بحكمته يضع العذاب في مكانه المناسب ، وهو الإنسان الذي يستحق العقاب أو الابتلاء ، ويضع الرحمة في مكانها الملائم وهو الإنسان الذي يستحقها .

وقد ورد اسمه تعالى ( الحكيم ) في سور ( الم ) ست عشرة مرة . وجاء في إحداها مقترناً باسم ( العليم ) ، بينما جاء في سائرهما مقترناً باسم ( العزيز ) وهو من أسماء الجلال .

فيطش بالكفار المسيئين بعد إنذارهم وفي الوقت الملائم ، فهو لذلك حكيم .



وأما اقتران الاسمين ( العليم والحكيم ) ، ففيه تلاؤم من ناحية أخرى ، فإن الحكيم ينبغي له - كي يضع الشيء الملائم في المكان الملائم - ينبغي له أن يعلم ما هو الشيء المناسب وما هو المكان المناسب . وقد وردت أيضاً في سور ( الم ) أسماؤه تعالى ( الخبير والسميع والبصير ) التي تدعم معنى ( العليم ) ، إذ الخبرة والسمع والبصر جميعها هي من عوامل العلم والإدراك .

أسماء حسنى أخرى : وقد وردت في سور ( الم ) أيضاً من أسماء الجلال ( العلي ، الكبير ، العظيم ، مالك الملك ) ، ومن أسماء الجمال ( الرؤوف ، الوهاب ، الوكيل ، الحليم ، الحي ، الواسع ، اللطيف ) .

### أسماء تحوي الجلال والجمال معاً :

تتميّز بعض أسماء الله الحسنى بأنها يحوي الواحد منها كلا معنيي الجلال والجمال معاً . ومنها :

أ - القيوم : إن القيوم هو الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى غيره ، والذي لا يقوم غيره إلا به . كما أن القيوم تعني الذي يدبّر شؤون خلقه ، وهذا التدبير يشمل الأعمال الإلهية جميعها ، شديدها ولطيفها ، فهو سبحانه يُعزّز ويُذلّ ويرحم ويعذب ويغني ويفقر ويرفع ويضع ويحيي ويميت : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء وتُعزَمَنْ تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخيرُ إنك على كل شيءٍ قديرٌ ﴿  
( آل عمران : ٢٦ ) . وقد ورد اسم ( القيوم ) مرةً في سورة البقرة ومرة  
أخرى في سورة آل عمران .

ب - الرحمن : لقد ورد اسمه تعالى ( الرحمن ) في سور ( الم ) مرة  
واحدة وذلك في سورة البقرة ( ١٦٣ ) وذلك عدا وروده في البسملة .

إن هذا الاسم الكريم ، كما تبين لي من النظر في آيات القرآن الكريم  
- يجمع بين الرحمة والشدة . فأما معنى الرحمة فيظهر جلياً من اشتقاقه من  
مادة ( رحم ) ، كما يظهر أيضاً من اقترانه بالوَدِّ وبجنات عدن في الآيتين  
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ( مريم :  
٩٦ ) ، ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ( مريم :  
٦١ ) .

وأما معنى الشدة في اسم ( الرحمن ) ، فيتجلى في اقترانه بالخشية  
والعذاب والضُرُّ والبكاء والخشوع في الآيات التالية :

١ - قال تعالى - على لسان إبراهيم عليه السلام - ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ  
أَنْ يَمْسُكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ ( مريم : ٤٥ ) ،  
فلاحظ أن الرحمن هنا يوقع العذاب بالناس .

٢ - وقال : ﴿ إِذَا تُلْتَمَسُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾  
( مريم : ٥٨ ) والسجود والبكاء دليلان قاطعان على استشعارهم الهيبة  
والخوف من ( الرحمن ) .

٣ - وقال : ﴿ إِنَّمَا تَنْذَرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾  
(يس : ١١) ، فالرحمن يُخشى أي يُخاف

٤ - وقال : ﴿ إِنَّ يَرِدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ ﴾  
(يس : ٢٣) ، فالرحمن يصيب الناس بالضُرِّ فاسمه تعالى (الرحمن)  
يجمع بين الهيبة والرحمة ، أي بين صفات الجلال وصفات الجمال ، ففيه  
تلاؤم بينهما وتلاؤم وتوازن بين الألم والأمل ، ومن هنا أشارت السورة  
التي تحمل اسم (الرحمن) إلى (الميزان) مراراً ، كقولها ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا  
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ كما أشارت بصراحة إلى صفات الجلال والجمال بتكرارها  
اسمه تعالى (ذو الجلال والإكرام) مرتين ، فذو الجلال يشير إلى صفات  
الجلال ، وذو الإكرام يشير إلى صفات الجمال .

ج - الرَّبِّ : إن (الرب) هو المربي والمصلح والمالك . والمربي  
يستعمل كلا من الشدة والرحمة ، وكلاً من الترغيب والترهيب ، لتربية  
من يربيههم ولإصلاحهم .

وقد ورد اسم (الرب) في سور (الم) مقترناً بما يفيد (الرحمة والمغفرة  
والاستجابة للدعاء) ، وذلك كما في الآيات : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ  
كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ٣٧) ﴿ أُولَئِكَ  
عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة : ٥) ، ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ ﴾ (البقرة : ١١٢) ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾

( آل عمران : ١٩٥ ) .

كما ورد فيها مقترناً بما يفيد الشدة والبلاء ، كما في الآية : ﴿ يذَّبْحُونَ  
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ( البقرة :  
٤٩ ) .

\* \* \* \*

تلك هي زمرة سور ( الم ) - زمرة التلاؤم .

زمرة التلاؤم الكوني - الذي يدلّ على الله الحكيم العليم .

زمرة التلاؤم في التشريع الإسلامي - الذي يدل على صدق القرآن  
الكريم ورسوله الأمين .

زمرة التلاؤم الواجب على الإنسان أن يبينه في قلبه ، ليفوز بالنعيم  
المقيم .

زمرة إحداث التلاؤم والتوازن بين ( الألم والأمل ) ، بين ( الملء  
واللء ) بين ( الميل واللوم ) ، بين ( المال والملا ) .

إنها زمرة ( ألف لام ميم )

والحمد لله رب العالمين

## فهرس الإعجاز

٩	الباب الأول
١١	الفصل الأول - التركيب والتحليل والتلاؤم
١٩	الفصل الثاني - حروف (الم) والتلاؤم
٢٥	الفصل الثالث - التركيب التصنيفي الاصطفائي
٣٣	الباب الثاني
٣٥	الفصل الأول - التلاؤم الكوني
٥١	الفصل الثاني - تحدي الناس بتركيب كائن حي
٥٧	الباب الثالث
٥٨	التلاؤم في التشريع الإسلامي
٥٩	الفصل الأول - الإسلام تركيب متلائم رائع
٦٧	الفصل الثاني - العبادات والمحرمات الإسلامية والتلاؤم
٧٤	التلاؤم والتوازن في الوسطية
٧٦	يسر الإسلام يلائم الإنسان
٧٧	الباب الرابع
٧٨	التلاؤم الذاتي الاختياري
٧٩	الفصل الأول - تركيب (الألم) وخطورته

٩١	الفصل الثاني - علاقة (الأم) بالشهوات
١٠١	الفصل الثالث - هل نطلب لأنفسنا (الأم)
	الفصل الرابع - التركيب الثاني (الأم) والتلاؤم بين (الأم)
١٠٥	و(الأم)
١١٣	الباب الخامس
١١٥	الفصل الأول - التركيبان (ملاً) و(ملاً) والتلاؤم بينهما
	الفصل الثاني - الملاء والتفريغ في أجلّ معانيه : ملاء القلب بالتفوى
١٢٥	والشكر
١٣٣	الفصل الثالث - الملاء والتفريغ في أركان الإسلام وفي الآخرة
١٣٥	الباب السادس
١٣٧	الفصل الأول - التركيب (ملاً) المجتمع المتلائم
١٤٣	الفصل الثاني - الملاء والتراكيب التصنيفية الاصطفائية
١٤٧	الفصل الثالث - الملاء والحروب والتلاؤم
١٥١	الفصل الرابع - التركيب (ملاً) وتلاؤمه مع (الملاء)
١٥٧	الباب السابع
	التركيبان (ملاً) و(لام) والتلاؤم بينهما
١٦١	الباب الثامن
	أسماء الله الحسنى والتلاؤم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تم تحميل هذه المادة من:

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>